المكتبة الخضراء للأطفال

٥٣

تائه فى القناة

تأليف
يعقوب الشارونى



رسوم
سيندى عبد السيد



دَخلَت «الخالَةُ أمُّ مصطفى» مُندَفعَةً مِنْ باب دَارِهَا المَصْنوع مِنَ الخَشَب السَّميك، ثم أغلقَتْهُ خَلْفَها بعُنْف، والبابُ لِثِقَلِه يئِزُّ ويُقاوِمُ، مَعَ أَنَّ الصّبَاحَ لَيْسَ هُوَ موعدَ إغْلاق أبواب البُيوت فى قَرْيَة شارونة.

ودهشَ ابنُها مسعود الذى يبلغُ الثّانيَةَ عَشْرَةَ، فلم يسبقْ أَنْ رَأى هَذا البابَ مُغْلَقًا خلالَ النّهار. وزادَتْ دهشتُهُ عندمَا وَجدَ أمّهُ تَنْقَضُّ عليه لتنتزعَهُ منْ لُعْبَة «السيجَة» التى كانَ يلعبُهَا مَعَ أخيه محسن الأصْغر منْهُ بأرْبَع سَنوات، تُراقبُهما أختُهما «أزهار» الّتى تكبرُ «مسعود» بعامَيْن.

أمسَكَتْهُ أُمّهُ بقُوّةٍ من ذراعِه وراحَتْ تَجْذبُهُ بعنف، بلْ تكادُ «تسحَبُهُ» خَلْفَها، ثم اندفعَتْ تصعَدُ به دَرجات السُّلّم الطِّينيَّةَ المُتآكلَةَ المُؤدّيَةَ إلى سَطْح الدّار، وهُوَ يَصيحُ مُحاولاً التّملُّصَ منهَا:

«اتْرُكيني.. لماذَا تَسْحَبيننى هكذَا ؟! ماذا حدثَ ؟»

ولم تَتوقّفِ الأمُّ لِتُجيبَ عَنْ أسئلَة ابنِها واحْتجاجاته المتلاحقَة، بل استمرّتْ تجذبُهُ فى لهفَةٍ وهى تُهَمْهِمُ بكلماتٍ مُتقطّعةٍ استطاعَ مسعود أَنْ يفهمَ بعضَها مِنْ خلالِ أنفاسهَا اللاّهثَة:

«إنّهم فى الطّريقِ إلى هنَا.. سَيأخُذونَكَ ولن تَعودَ كَما أخذُوا أخاكَ مصطفى.. أسْرِعْ.. أسْرِعْ مَعى..»

وفَوْقَ السّطْح عندَ صَوْمَعَة حفظ حُبوب الذُّرَة، العاليَةِ المُنتفخَة البطنِ، حملَتِ الأمُّ ابنَهَا حَمْلاً، ورفعَتْهُ فَوْقَ سَطْحِ عُشّةِ الدّجاجِ المُجاورَةِ وهى تأمرُهُ فى حَسْمٍ:

«تَسلّق الصومعةَ واقْفزْ داخلهَا.. اقفزْ بسرعَة لكى لا يجدوكَ...»

كانَ الاضطـرابُ الهائلُ الذى سَـيْطرَ على تَصرُّفـات الأمّ وحركاتهَا وصَوْتهَـا اللّهوفَ الصّادر عَنْ أقصَى دَرجَـات الهَلَع، هُما اللّذان جَعَلا ابنَها «مسعود» لا يسألُ أسئلةً أخرَى، بَلْ أطاعَ بغَيْر تَردُّد وقد فَهمَ أنّ خطرًا دَاهمًا يَترصّدُهُ لينتزعَهُ بعيدًا عَنْ شارونة وعَنْ أمّه وإخوته.

وكادَتْ قَدماهُ تَغوصَان فى الفَتحات بيْنَ جَريد النّخْل وحَطَب الذُّرة الذى يُغطّى سَـقْفَ العُشّـة، لكنّ أصابعَ يديْه اسْـتطاعَتْ أن تتَشـبّثَ بالحَافة العُلْيا لفُوّهَة الصّوْمَعة. ثُمّ زحف بجسمه عَلى السّطح الخارجىّ المُنْحدرِ للصّوْمَعة حَتّى اعتلاهَا، وبقَفْزة واحدَة سَـقطَ داخلَهَا فوْقَ كَوْم حُبوب الذُّرة الذى ملأ أقلّ منْ نصْفها، معَ أنه كانَ منَ المُعتاد أن تكونَ الصّوْمَعَةُ مُمتلئةً حتّى حافتهَا فى مثْل هذا المَوْسم من كلّ عام.

صاحَتْ فيه أمُهُ: «لا صَوْتَ ولا حَركَة... كأنّكَ غَيْرُ مَوْجودٍ!»

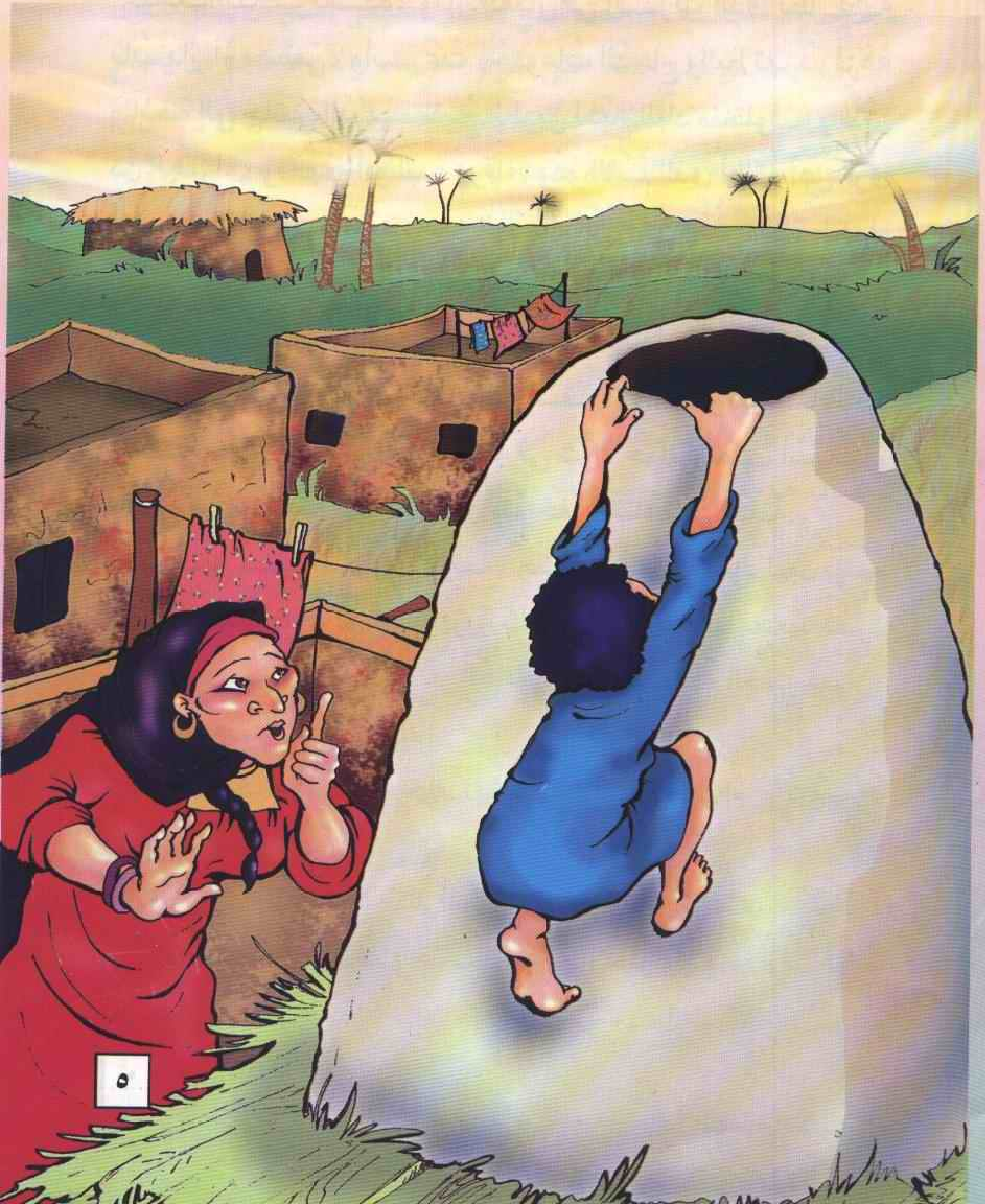
ثمّ أسْـرعَتْ تنزلُ منْ فَوْق سَـطْحِ الدّار، وأمسـكَت ابنَها «محسـن» الصغيرَ وصاحَتْ فيه آمرَةً: «إيّاكَ أنْ تقولَ شـيئًا.. هى عبـارةٌ واحـدةٌ لا تقُلْ غيْرَها: «لا أعرفُ».. إيّاكَ أنْ تَزيدَ! هل فَهمْتَ؟!»

وهزّ محسن رأسَـهُ بمَـا معنـاهُ أنـه فَهـمَ، فالتفتَـت الأمُّ إلـى ابْنَتِهـا «أزهَار»، وقالَتْ وهى تُشيرُ بذراعهَا وسَبّابتهَا إلى داخلِ الدّار:

«وادْخُلى أنتِ... لا أريدُ أن يَراكِ أحَدٌ، خاصّةً مخلوف شَـيْخ البَلَد الرّذْل!»

ثـم عادَت الأمُّ إلى بابَ الدّار تفتحُهُ بهُدوء كأنمَا لمْ تُغلقْهُ بكلّ ذلكَ العُنْفِ منذُ دَقائقَ، وهى تُحاولُ السّـيْطرَةَ عَلَى نفسِهَا لتَبْدُوَ كأنّ شيئًا مُهمًّا لايشغلُهَا.

لَقَـد أخفَـتِ ابنَها «مسـعود» ، وظَنّتْ أنّهَا بهَـذا قَدْ أبعَدَتْـهُ عَنْ أيدِى السُلْطَةِ الغاشمَةِ !



نَبحَت الكلابُ بشِـدّة، وثارَ الغُبارُ فى الـدّرْب الذى يُطلُّ عَلَيْه بابُ دَار أمّ مصطفى، وأسـرعَتْ مَجْموعاتُ الدّجاج والبَطّ تهربُ فَزِعَةً صائحةً إلى جانبَى الدّرْب، تُفسحُ الطّريقَ لشَيْخ البَلَد «مخلوف» واثنَيْن منَ الخُفَراء، ومَعَهُمْ «أبو لبدة زرقاء» وهُوَ الاسْمُ الذى أطلقَهُ أهلُ قُرَى مُديريـةِ المنيا على مَنْدوب جَمْع العُمّـال اللاّزمينَ لحفْر «قَناة صحراءِ السُّـوَيْس»، وهم الفلاّحـونَ الّذينَ يتمُّ جمعُهم تَنْفيذًا لطَلَبات شَـركة قَناة السُّويْس، وهِىَ طلباتٌ مُتواليَةٌ تُقَدّمُهَا بَإلحَاح إلى أفنديِنَا الوالى «الخديوى سـعيد باشـا» حاكم مصرَ سـنة ١٨٦١مَ، وأكبرِ مُساهم فِى رأسـمَال تلكَ الشّركَة، التى وَرّطَتْهُ فى شراء حوالَىْ نصْف أسْهُمِهَا، فأصْبحَ مِنْ مصلحته الشخصيّة أنْ يتمّ حفرُ القناة بأقَلّ تَكْلفة.

وكانَ يتبعُ مُمثلى السُّـلْطة الأربعةَ، حَشْدٌ منْ صَغارِ الأطفال لَيْسَ بينهُم رجلٌ ولا شابٌ واحدٌ منْ أهَالى قَرْيَةِ شارونة بمُديريةِ المنيا بصَعيد مصْر!

وتَوقّفَ «مُمثلو السُّلْطة» أمامَ دَار الخَالةِ أمّ مصطفى، وصاحَ الخَفيرُ عُمران: «يا مسعود.. العُمْدَةُ يَطلبُكَ!»

صاحَت الخالَةُ المُتوارِيَةُ خَلْفَ بابِ دارهَا المَفْتوح: «ابْنى مسـعود فى الغَيْط مُنْذُ الفَجْر».

وبغَيْرِ تَرَدُّدٍ صاحَ شَيْخُ البَلَدِ آمرًا الخفيرَيْن: «ابحثَا عَنْه..»

وبدونِ اسْـتئذانٍ اقْتحَمَ الخفيـرانِ بابَ الـدّار والأمُ تُحاولُ إغلاقَهُ فلا تستطيعُ!

وأصبـحَ البابُ مَفْتوحًا عَنْ آخره، فهَرْوَلَ الخفيران إلى داخلِ الدّار، ووجدَت الخالَةُ أمُّ مصطفي نفسَها فى مُواجَهةِ شَيْخ البلد!

صَاحــت الخالَــةُ: «أخذْتُم ابْنِى الأكبرَ مصطفى قَبْـل أن يَبْذُرَ تقاوى الذُّرَة، ليَحْفـرَ هَذه القناة الّتى تَقولُونَ عَنْهَا، والآنَ لا نجدُ مَنْ يجمعُ لنـا قناديلَ الغلّة.. ثـلاث مَرّات يظهرُ القَمرُ ثـم يَخْتَفى ومصطفى لم يرجـعْ، واللـهُ وَحْدَهُ يعلمُ مَتَـى يَعودُ وما إذا كانَ مُقـدّرًا له أصلاً أنْ يعودَ!.. لَنْ تأخُذُوا أخاهُ قَبْلَ أنْ يرجعَ!»

صاحَ شَـيْخُ البلدِ مُهدّدًا فى جَفاءٍ: «لا جَدْوَى منْ إنْكارِ وُجودِ ابنِكِ.. أنت تُقاومينَ الحُكومَةَ!»

ثـم الْتفتَ إلى «أبو لبدة زرقاء» يطلبُ معونتَهُ فــى تأكيدِ تَهْديداتِهِ قائلاً له: «قُلْ لهَا إنهَا أوامرُ مِنْ فَوْقُ يا شَيْخ جرجَاوى؟!»

قــالَ جرجَاوى مَنْدوبُ جَمْع العُمّالَ صائحًــا فى الخَالَةِ أمّ مصطفى: «إعْــلانُ الحُكومة عَلّقْنــاهُ على باب المَسْجد، والــكَلامُ فيه واضحٌ: الفلاّحونَ مَطْلوبونَ للعمل فى حَفْرِ صحراء السُّـوَيْس لمُدّة شَهْرٍ واحدٍ يَعودون بَعْدَهُ.. طولُ الطّريقِ هو سَببُ تأخُّرِهم فى العَوْدَة»

صاحَــت الخالَةُ: «أىُّ إعْلان هذا الذى تتحدّثُ عنه؟! نحنُ لا نَعْرفُ قراءةً ولا كَتابةً.. أعرفُ فقط أنه مضَتْ شـهورٌ منذُ ذَهاب ابْنى الكبيرِ مصطفى وأنـه لم يَعُد حَتّى الآنَ، والإشاعاتُ كثيرةٌ!!»

ثـم تَحفّزَتْ كأنّهـا تَتأهّبُ لتنقضّ بأظافرِ يديْها علـى وَجْهِ مخلوف وصاحَتْ: «ماذا فعلْتُم بابنى؟! وما هُوَ هَذا الطّريقُ الذى يَحْتاجُ شـهرَيْنِ للذّهابِ وشــهرَيْنِ مِثْلَهمَا للعَوْدَة يا شَـيْخُ مخلوف؟! لمَاذَا لا تُريدُ أنْ تتركَنَا فى حالِنا يا شَيْخَ البَلَدِ؟!!»

فى تلك اللّحظَةِ خَرجَ الخفيرُ عمران من باب الدّار وقد أمْسَكَ بذراعِ ابنِها الصغيرِ محسن (٨ سنوات) يجذبُهُ خلفَهُ والولدُ يصرخُ يُحاولُ التخلّصَ منْ قَبضته، بينما أختُهُ أزهار (١٤ سنة) تُمسكُهُ من ذراعِه الأُخرى تُحاولُ إنقاذَهُ منْ قبضةِ الخَفيرِ القويّةِ وهِىَ تصيحُ: «لن تَخطفُوا أخِى الصّغيرَ... سيَموتُ بَيْنَ أيديكم!»

صاحَ شيْخُ البَلَدِ بالخَفير: «لا نُريدُ هَذا الصّغيرَ..»

عنْدئذ ظهرَ الخَفيرُ الثّانى خارجًا مِنْ بابِ الدّار وهُوَ يَقولُ: «لم نَجدْ إلا هَذا!!»

صاحَتِ الأمُّ وهِىَ تُلقِى بنَفْسها علَى أصْغَرِ أبْنائِها: «أوْقِفوا هَذه الغارات علَيْنا... ارْحَمونا.. نُريدُ أن نَعيشَ!»

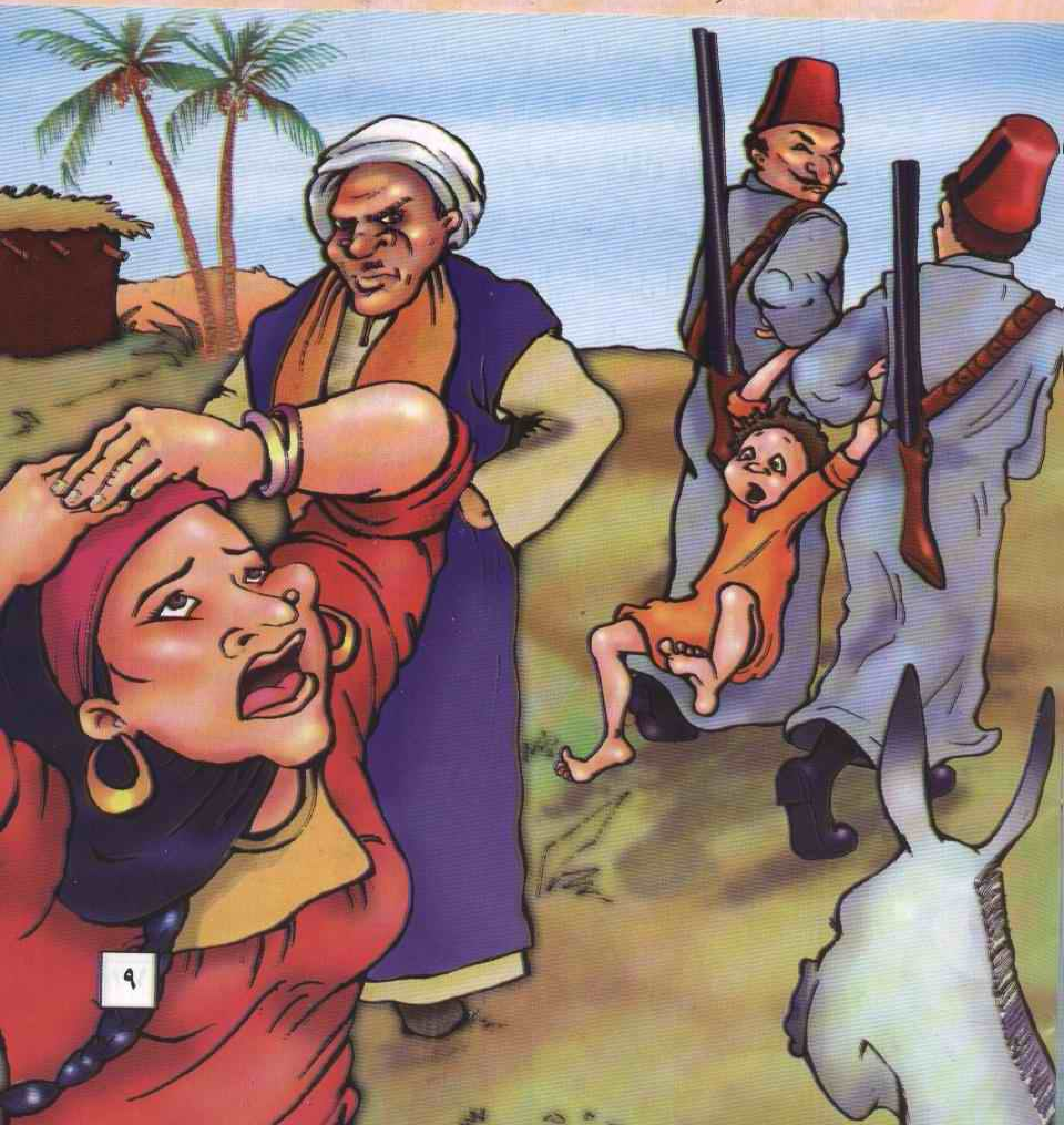
تَجاهَلَ شَيْخُ البَلَدِ صياحَها وقالَ فى صَوْت جافّ لِمَنْدوب الشّركة: «نأخُذُ هَذا الصّغيرَإلى أن تُسلّمَ لنا أمُهُ أخاهُ الأَكْبَرَ منه، ألَيْسَ كذلكَ؟!»

وقَبْلَ أن يُجيبَ المندوبُ، تَشبّثت الأمُّ بأصغَرِ أبنائها الذى لا ترتَفعُ قامَتُهُ عن وَسطها، وصرخَتْ نادِبَةً نائحةً: «يكفِى ما أخَذْتُم.. الرّجالُ والغلالُ.. ابْتَعدُوا عَنِ الأطْفال!»

لكنّ الخفيرَيْن انتزَعا فى عُنْفٍ «محسن» الصغيرَ من بَيْن أحْضانها، وشَيْخُ البَلَد يَقولُ لَها مُتوعّدًا: «سيَبْقَى فى حَجْز دُوّار العُمْدَةِ إلى أن يُسافِرَ مَعَ المُسافرينَ لحَفْرِ القَناة، إلاّ إذَا أحضَرْتِ أخاهُ «مسعود» الأكبرَ منه قبل السّفر».

نَهْنَهَت الخالَةُ أمُّ مصطفى ودُموعُها تَنْسابُ بغَيْر تَوقُّف وهِىَ تَهْمسُ لنَفْسها منْ بَيْن شَهَقاتها: «تُلْقِى بأبنائى إلى المَوْتِ فى جَحيم السُلْطَة يا شَيْخُ مخلوف لأننى رَفَضْتُ أنْ ألقِىَ بابنتى أزهار فى نارِ حَريم بَيْتِكَ المُشتعلَة؟! ربنا على الظّالم!!»

فقـد كانَ كُلُ أهْـل شـارونة يعرفـونَ أن «مخلـوف» شَـيْخَ البَلَـد قد طلَبَ من الخالَةَ أمّ مصطفى أنْ يتزوّجَ ابْنَتَها أزهار، وهو يقصدُ أنْ يجعلَها تخدمُ زوجاته الثُّلاثَ وَسطَ شجَارهنّ العَنيف الذى لا يتوقّفُ، وتَظلُ البلَدُ كلُها تتحدّثُ عنه مرّةً بعدَ أخْرَى، لكنّ الخالَةَ رفضَتْ هَذَا المَصيرَ لابنتها، وَقَدْ أصبحَتْ على ثِقَةٍ الآنَ أنّ شَيْخَ البَلَدِ لن ينسَى لها رَفْضَها هَذَا!



٣

علَى «الدّكّة» الخَشـبيّة المُسـتطيلَة فـى «مَنْدَرَة» عُمْـدَة قَرْيَة شارونة، كانَ جرجَاوى مَندوبُ شـركَة القَناة يُحرّكُ سَبّابَتَهُ أمامَ وَجْه العُمدَة مُهدّدًا وهو يقولُ :

«أوامِـرُ المُديرية تُلزِمُ قريةَ شـارونة بتَقْديم عشْـرينَ من الرّجال والشّباب، لتَتعاقَدَ معهم الشّـركةُ هذا الشّهْرَ للمُشـاركَة فى الحَفْر، لكنّنى لَمْ أجمعْ طوَالَ اليَوْم وحَتّى المَغْرب هَذا النَّهار إلا ثلاثَة عَشَـر، عُمْرُهـم جَميعًـا أقلُّ من خَمسـةَ عَشـرَ عامًا، وبعضُهم عمـرُهُ ثماني سَنوات.. أنتَ تَقومُ بمَلْعوب خطير يا عُمْدَةُ! لقد نبّهْتَ أهلَ البَلَد قَبْلَ وُصولى، فهرَبَ الرّجالُ والشّـبابُ إلى الجبَل أو للاخْتباء بينَ الأعواد الطّويلَة فى حُقول الذُّرَة، فلم نعثرْ على واحد منهم حَتّى الآنَ!»

قالَ العُمْدَةُ فى احْتجاج: «منذُ أربعة أيام وأنتَ تزورُ القُرَى المُجاورَة واحدةً بعدَ الأخْرَى.. هلْ تظُنُّ أنّ أخبارَ زيَاراتكَ لم تَصلْ إلى شـارونة قَبل أنْ تُغادرَ أىّ بَلَد مُجاور؟!»

قـالَ جرجَاوى فى تَحَدّ: «كانَ يجبُ أن تتحفّظَ عَلَيْهم يَا عُمْدَةُ! أنتَ تعرفُ أننا قادمونَ لأخْذهم!!»

قالَ العُمْدَةُ فى غَضب: «البلدُ كلُّها أمامَكَ.. أنتَ لم تترُكْ فيهَا رجالاً ولا شَـبابًا... أخذْتَهم جميعًا فى المَرّات السّابقة ليعملُوا فى حَفْر تلكَ الصّحـراء. كذلكَ لم نسـمَعْ أنه مَسـموحٌ لكَ أنْ تأخذَ للسُّـخْرَة أطفالاً لا تزيدُ سِنُّهم عَلى ثمانى سَنوات!!»

صاحَ جرجاوى [وهو يعرفُ أنّ مُديريةَ المنيا شدّدَتْ عَلى العُمَد أنْ يُساعِدوا

المَندوبينَ أمْثالَه، بكُلِّ الطُّرُقِ وبِكُل قُوَّةٍ وحَزْم، لتَجْنيدِ أكبرِ عَدَدٍ منَ الفلاّحينَ، وإجْبارهم عَلى وَضْعِ بَصماتِ أصَابعهم على وَرَقِ العُقودِ اللازمَةِ لتَشْغيلِهم]:

«لا تَقُلْ سُخْرةٌ يا عُمْدَةُ!.. إنّهم يضَعُونَ بَصماتَهم عَلَى عُقودٍ [مع أنه يعرفُ أنهم أمّيونَ لا يَقْرءونَ]، وهم بهذا يُعْلنونَ أنهم يَذْهبونَ برَغْبتِهم وإرادتِهم [مع أنه يُحرّضُ العُمَدَ على إجْبار الفلاّحينَ عَلى وَضْع بَصماتِهم تحتَ التّهديدِ بالضّرْبِ والإهانَةِ والحَبْس]، ويأخذونَ أجورًا مُقابلَ عَمَلِهم: قرشَيْنِ ونصْفَ القَرْشِ للرّجُلِ عن كلِّ يَوْمِ عَمل». [مع أنه يعرفُ أَنَ هذه الأُجُورَ تافهةٌ جدًّا، وأَنَ العُمّالَ لا يتَسلّمونَ أجورًا، بل أوراقًا قالَتْ لهم الشركةُ إنهم يُمكنُ أَنْ يَقبضُوا بمُقْتضَاهَا بعدَ رُجوعهم إلى قُراهم، وأنه لابُدّ منْ سَفَرهم مِنَ المنيا إلى أسيوط ليَقْبِضُوا مِنْ مَكْتَبِ الشركةِ هناك، فإذا اسْتَطاعَ أحدهم تَحمُّل نَفَقاتِ السّفَر منْ شارونة بالمنيا إلى أسيوطَ ليتَسلّمَ أجْرَهُ، فإنه سيَجدُ الأجورَ التافهةَ عَنْ عمله فى الحفرِ قَدْ خَصَموا منها مُكافأةَ مَنْدوبى جَمْعِ العُمّال، ومُكافأةَ رُؤساءِ العُمّالِ فى سَاحَاتِ الحفْر، ونِسْبةً كَبيرةً لأفندينَا الخديو، لأنّ رجالَ السُّلْطَةِ التّابعينَ له هُم الذينَ سَاعدُوا فى جَمْعِ العُمّال، ولأنّ الحُكومةَ هى التى تَحمّلَتْ نَفَقاتِ تَنقُّلاتِهم وسَفَرهم، فَلا يبقَى للعامل شَىْءٌ بعدَ نفقاتِ سَفرهِ إلى أسيوط، فى مُقابلِ غيابِه عَنْ زراعتِهِ ثلاثةَ أشهُرٍ وعمله الشّاقِ شَهْرًا فى تحطيم الصُّخور وحَفْرِ رمالِ الصّحراءِ].

ثم ارتفعَتْ لهجةُ التّهديدِ فى حَديثِ جرجَاوى وهو يقولُ:

«وستكونُ أنتَ المَسْئولَ يا عُمْدَةُ إذَا لَمْ يتوافَرِ العَددُ المَطلوبُ منَ الفلاّحينَ.. نظامُ تشغيلِ العُمّالِ الذى أصدَرَهُ «أفندينا الخديو» [ولاحظ

العُمْدَةُ أَنّ المَنْدوبَ نَطَقَ هَذه العبارَةَ الأخيرة بِبُطْءٍ ووُضوح لكى لا يَغيبَ معناهَا أبدًا عَنْ ذاكرته !].. هَذَا النظامُ يُعْطى الشَّركَةَ الحَقّ فى تَشْغيل الأطْفال الذينَ يقلُ عُمْرُهم عَن اثنتَىْ عشـرَةَ سـنَةً. اقرأ الإعلانَ جيدًا يا عُمْدَةُ أو اطلُبْ منْ أحدهم أنْ يقرأه لَكَ !.. الإعلانُ يُقرّرُ أَنّ أجْرَ هؤلاءِ الأطفال قرشٌ كاملٌ عنْ كلّ يَوْم يعملونَ فيه فى ساحات الحَفْر، ولائحةُ النظَـام «الخديويَة» لـم تُحدّدْ سـنًّا مُعيّنةً لتَشْـغيل الأطْفَال: ثمانى سَنوات أو سَبْعٌ أو أقلُ.. قالَتْ فقط: أقلُّ من اثنتَى عَشْرَةَ سنةً !».

قالَ العُمْدَةُ: «لكنّ أخبارًا سَيّئةً وصلَت البلدَ!.. دُفْعَةُ الشّباب التى سافرَتْ آخرَ مرّةٍ إلى ساحات الحفْر منذُ أكثرَ منْ ثلاثة أشْهُر، لم ترجعْ حَتّى الآنَ!».

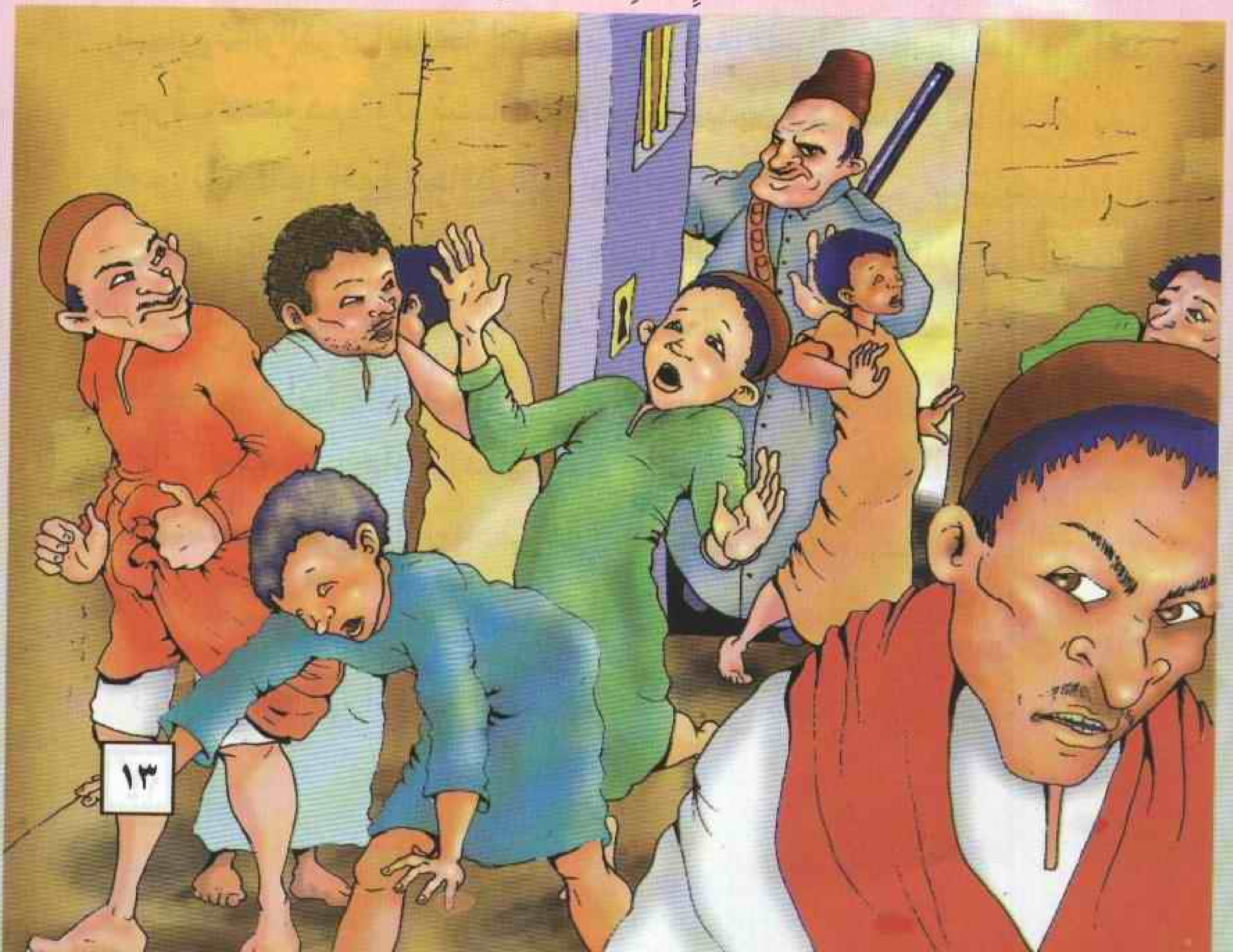
صاحَ جرجاوى مُتَوعّدًا: «لا تَجْر وَراءَ الإشاعاتَ يا عُمْدَةُ ! سيَعودونَ كلُهم بإذْن الله، لَكنّنى أحذّرُكَ من الظَنّ بأَنّ أقاويلَ النسـاء فى قريتكَ هذه ستُعفيكَ مِنْ مَسْئولية تَحْريض الناس على الهَرب من التَوْقيع على عُقود العمل فى الحَفْر، أَو التّخلُف عن السّفر بعدَ التّوْقيع !».

قالَ العُمْدَةُ مُراوغًا: «لاتزال أمامَنا عدّةُ أسَابيعَ قَبْلَ المِيعادِ المُحدّدِ لِسَفر هذا الفوْج إلى صَحْراءِ السُوَيْس!».

قـَالَ جرجَاوى: «لابـدّ أنْ أواصلَ زياراتى إلى قُـرًى أخْرَى مُتَعدّدَة تابعةٍ لمَرْكَز مغاغة، حتى يكتمـلَ العددُ المَطْلوبُ أن أجمعَهُ من المَرْكَزَ لهذَا الفَوْج... المُديريّة تُشدّدُ عَلى ضَرورة تَجْميع الفوْج الجَديد كلّه قَبْلَ أن يعودَ الفَوْجُ السّـابقُ. أفَندينا الخديو لا يُريدُ مشـاكلَ مع الشّركة، ولا يُريدُ أَنْ تَتعطّلَ أعمالُ الحَفْر يَوْمًا واحدًا... فَوْجٌ فى طَريق الذّهاب للعَمـل فى حَفْر القَنـاة وفَوْجٌ آخَرُ فى طَريق العَـوْدَة، ليحلَّ الجَديدُ مَحلّ السّابق فى نَفْس اليَوْم فى ساحات الحَفْر».

ولم يستطع العُمْدَةُ أنْ يمنعَ نفسَهُ من أنْ يقولَ فى احتجاج لمَنْدوب الشّركة: «يا شَيْخُ جرجاوى.. أنتَ تُحصّلُ عن كل رَجُل تقومُ بتَوْريده للشّرِكة، على مَبْلَغ نصْف قرْش عَنْ كلّ يَوْم يقضيه العاملُ فى عمليات حَفْر القَنَاة، فلم يعُدْ يهمُّكَ حرْمانُ الحُقُول من عَمَل الفلاّحينَ، فلا بَذْر للبُذور، ولا جَنْى للمَحاصيل، ولا خدمة للزّراعات! هذا خَرابٌ للبيُوت يا شَيْخُ جرجاوى! لماذا يبقَى الرّجالُ فى سِجْن الحَجز أسابيعَ بلا عَمَل ينتظرونَ السفرَ إلى ساحات الحَفْر فى تلكَ الصّحْراء؟!».

قالَ جرجاوى فى حَسْم وفَراغ صَبْر: «الأوامرُ هِىَ! وسيظلُّ الفَوْجُ الجَديدُ بعد تَجْميعه تَحتَ المُراقَبة المُسلّحَة فى حَجْز مَرْكَز مَغاغة لكى لا يهربَ أحدٌ، إلى أنْ تصدُرَ إليهم الأوامرُ برُكوب الصّنادل والسُّفُن للتّحرُّك إلى ساحَات الحَفْر. ولا تَنْسَ يا عُمْدَةُ أنْ يضعَ كلُّ واحد بصمةَ أصبعه على ورقة العقد... أفندينا لا يُريدُ أنْ يُثيرَ أحدٌ أىّ حديثٍ عَن السُّخْرَة!».



٤

وضعَت الخالةُ أمُّ مصطفى الطّينَ فَوْقَ رأسها، وصبغَتْ وجْهها «بالنيلة الزرقاء»، ووقفَتْ تلطمُ خدّيْها أمامَ باب دُوّار العُمْدَة وتَصيحُ:

«اترُكوا لى وَلَدى... ستقتلونَ وَلَدى الأصغرَ كما قَتَلْتُم مصطفى أَخَاه الأكبرَ... ابْعدْ عنا شَيْخَ البَلد يا عُمْدَةُ!».

كانَتْ تَصْرُخُ وهى تَستعيدُ إشاعةً سرَتْ فى البلَد، حملَها معه رجلٌ مِنْ قرية «الشيخ فضْل» المُجاورَة، عادَ أخيرًا من ساحات حَفر القَناة فى صَحراء السُّوَيْس وقَدْ هَدّهُ المَرضُ، وامْتصّ منه الإعْياءُ كلّ قُدْرَةٍ على العَوْدَة إلى العمل فى الحُقول.

قالَ بعضُ النّاس إنهم سَمِعُوا ذلكَ الرّجُل يَقولُ: «عَدَدٌ كبيرٌ منَ الرّجالِ الذينَ ذهبْتُ معهم إلى ساحاتِ الحَفْر مُنْذُ ثلاثَة أَشْهر منْ أهل شارُونة والقرَى التابعَة لنَفْس مَرْكَز مغاغةَ، لَمْ يَعودوا مَعنا ولا أحدَ يعرفُ مَصيرَهم، ولم نُشاهدْهم معَ العائدينَ وهم يُسلّمونَنا أوراقًا بَدلَ أجورنا، قَالُوا إنهَا تُحافظُ عَلَى حُقوقنَا التى لا نَعرفُ عنها شيئًا!!».

وَقد انْقضَت ساعاتُ الصّباح كلُها والخالَةُ أمّ مصطفى لا تتعَبُ منَ الصّياح أمامَ دُوّار العُمْدَة، حَتى اضْطُرّ العُمْدَةُ أَنْ يَصيحَ أخيرًا فى الخَفيرِ عمران: «اطرُدْ هَذه المَرْأةَ بعيدًا!».

قالَ الخفيرُ: «حَاوَلْنا مَعَها كثيرًا، لكنها تَعودُ كُلّما أبْعدْناها».

قال العُمْدَةُ مُتوتّرًا: «أحْضرْها أمامى...».

•••

صاحَ العُمْدَةُ فى الخالَةِ أمّ مصطفى قائلاً فى حَسْم: «هى كَلِمَةٌ واحِدَةٌ،

أحْضرى لمَنْدوب جَمْع العُمّال ابنَك مسعود (١٢ سنةً)، فَنُسلِّمَك فى الحال ابنَك الآخرَ محسن (٨ سَنوات)».

صرخَت الأمُّ: «هذا تَدْبيرُ مخلوف شَيْخ البَلد!.. مَنْ غيْرُه أرْشَدَ المَندوبَ إلى أبنائي الصّغار؟! تأخذونَ اثنَيْن فى وَقْت واحد من أولادى ليَموتوا معًا فى الحفر يا عُمْدَةُ؟! والله العَظيم هَذا حَرامٌ! تَذكَّرْ أننى أرملةٌ أرعَى أيتامًا بعدَ مَوْت «أبو مصطفى» .. الزَراعةُ بارَتْ وحُبوبُ الذُرَة تتساقط علَى أرض الحَقْل من قناديلها التى لم تَجدْ مَنْ يجمعُها.. البيتُ خرب ونحنُ نرى فيكَ الوالدَ لكُلّ الأيْتام يا عُمْدَةُ!».

قالَ العُمْدَةُ في لهجَة مُواسَيَة: «لَيْسَ بيَدِنا شَيءٌ!.. هذه أوامرُ أفندينَا، تُنَفّذُهَا المُديريةُ بكلّ شدّةٍ ودقة!».

قالَت الأمُّ وقد فَهمَتْ منْ لَهجَة العُمْدَة الجادّة أنّ صُراخها لَنْ يُغيّرَ منَ الأمور شيئًا:

«وهَلْ أوصَاكُم أفندينَا علَى أبناء أمّ مصطفى المَغْلوبَة على أمرهَا دونَ غَيْرهَا؟!! منْكَ لله يا شَيْخُ مخلوف!!».

وفَهمَ العُمدةُ منْ لَهجتهَا التى شابَها قَدْرٌ منَ التعقُّل أنَها بدأتْ تُدركُ مدى سَطْوَة السُّلْطَة القاهرة التى لا مَهْرَبَ منهَا، فالتفتَ إلى الخَفير عمران وصاحَ فيه آمرًا:

«اذهبْ مع الخالة أمّ مصطفى إلى بَيْتها، واحْضرْ معَكَ ابنَها مسعود».

صاحَت الأمُّ: «أتَسَلّمُ ابنى الصّغيرَ «محسن» قبلَ أن نذهبَ...».

قالَ العُمْدَةُ وقد عادَتْ إليه صرامتُهُ: «هى كَلمَةٌ وَاحدَةٌ: أحْضرى «مسعود» الأكبرَ، نُسلّمْكِ «محسن» الأصغرَ!».



لـم يكُنْ أمامَها اخْتيـارٌ.. قيلَ لهَا إنّ جرجَاوى عَلى اسْتعداد لتَرْك أبنائهَا إذَا اسـتطاعَتْ أنْ تُقدّمَ له خمسَةَ جُنَيْهات كَهديّة، وعندئذ لَنْ يهتـمّ بمَا قَدْ يَقومُ به شَـيْخُ البلد ضدّها مِنْ تَحريـض. لَكنْ من أيْنَ لَها بخَمسمائة قرْش مَرّةً واحدةً؟! إنهَا ثرْوةٌ طائلةٌ، خاصّةً وهى تعرفُ أن العاملَ فى حَفْر صحراء السُّـوَيْس لا يأخذُ مُقابلَ عمله شهرًا بطُوله فى الحَفْر إلا خمسَةً وسبعينَ قرشًا فَقط لا غَيْرَ! هذا إذا تَسلّمَها أصلاً!!

لَكنْ كَيْـف يتحمّلُ طفْلٌ عمرُهُ ثمانى سـنوات مثلُ محسـن الصّغير مَشـاقّ سَفَر يستغرقُ شهرًا فى النيلِ ثم سَـيْرًا عَلَى الأقْدام، ثم العملَ شـهرًا آخرَ فى حَفْر «القناة» ذلك المَجهول الذى يمتصُ عافيَةَ الرّجال الأشدّاء، ثم العودةَ فى طَريق صَعْب يستغرقُ شهرًا ثالثًا؟!!

إذَا تركَـت ابْنَها الأصغرَ يَذهـبُ فمنَ المُؤكّد أنه لـنْ يعودَ.. لا مَفرّ إذَنْ منَ السّـماح بذهاب أخيه الأكبر منه «مسـعود» (١٢ سنة) بغَيْر انْتَظار عَوْدَة الأخ الأكبرَ مصطفى (١٨ سـنة).. عَوْدَةُ مسعود مُحتمَلَةٌ، أمّا ذَهابُ محسنَ الصغيرِ فبغَيْرِ عَوْدَة!



وخرجَتْ قريةُ شارونةُ تُواسـى الخالَةَ أمّ مصطفى وهى تُشيّعُ ابْنَها «مسعود» اثناءَ ذَهابه معَ الخفير عمران إلى دُوّار العُمْدَة.

كانَتْ تَصيحُ وتُكرّرُ قائلَةً مرّةً بَعدَ أخْرَى منْ بَيْن دُموعها:

«حافظ على نفسك يا مسعود.. ابْحَثْ عن أخيكَ الكبير مصطفى.. نارُ قلبى لن تبردَ إلاّ إذا عرفْتُ ماذا حدثَ لأخيكَ مصطفى يا مسعودَ».

ثُـمّ أَحاطوا بهَا وهى راجعَـةٌ إلى بيْتها تحتضنُ ابْنَها الأصغرَ «محسـن»، يُحاولونَ التّخْفيفَ عنها بغَيْرِ جدْوَى، وَهى تئنُ أنينًا يُقطّعُ القُلوبَ، تنتحبُ وتقولُ فى مَرارةٍ:

«أَنَـا الأرملةُ يأخـذونَ منى اثنَـينْ لحَفْر تلـك القَناة! ! منْـكَ لله يا شَيْخُ مخلوف! مَنْ يزرعُ القيراطَيْن ؟! مَنْ يجمعُ المَحْصولَ؟! كيف نعيشُ؟! أينَ الأرضُ التى تحملُك فَوْقَها أو تَحْتَها يا مصطفى؟!!».



لكنْ، مَعَ أحزانِها، كانَ لابـدّ للخالَة أمّ مصطفى أن تحملَ صَباحَ كُلِّ يَوْم طَعامًا لابنِها مسعود فى حَجْزِ دُوّار العُمْدَة.

ثـُمّ فوجئَتْ بَعْدَ أربعةِ أيامٍ بالخَفيرِ عمـران يذهبُ إليها فى بَيْتِها لإبلاغهَا بأمر هامّ قالَ :

«العُمْـدَةُ يَنْصَحُكَ أَنْ تُرسِـلى إلى ابنِكِ مِنَ البتّـاو والبَصَلِ والمُلوحةِ ما يَكفيه شهرًا عَلى الأقلّ!».

عندئـذ عرفت الخالَةُ أَمُّ مصطفى أَنّ سـاعةَ رحيلِ ابنِهـا الثّانى قَدْ أقبلَتْ، فَلم تتوقّفْ دموعُها.

٥

لم ينسَ مسـعود كيفَ شَيّعَتْ شـارونةُ كُلُّها أبناءَها العشرينَ الذينَ كانَ هو مِنْ بَيْنِهم، فقدْ تعالَى العَويلُ والصُّراخُ بينمَا القاربُ الشـراعىُّ يعبـرُ بهم النيلَ إلى مَرْكَز مغاغة، يحرسُـهم الخُفَـراءُ تَحْتَ رقابَةِ مخلوف شَـيْخِ البلدِ، الذى عَيّنَهُ جرجَاوى ليُصبحَ واحدًا من رُؤَسَـاءِ العُمّالِ، ومسـئولاً عن تَوْصيلِ أبناءِ شـارونة إلى سـاحاتِ الحَفْرِ فى صَحْراءِ السُّوَيْس، وحِراستِهم هناكَ لِمَنْعِهم من الهَرَب!

وقد لاحَظَ عددٌ منْ أَهلِ شارونةَ ازدِيادَ عَويلِ الخالَةِ أمّ مصطفى عندمَا عرفَـتْ أنّ «شَـيْخَ البَلَدِ الرّذْل» سَـيكونُ هو المُتحكمَ فـَى مَصيرِ ابْنِها مسعود حتّى يعودَ، أو لاَ يعودَ !

أمّا مسعود فقد قالَ لِصَديقه «مندور» ابن قريةِ شارونةَ الذى انتزعُوه مثلَـهُ ضِمْنَ ذلكَ الفَوْجِ وإنْ كانَ يكبرُهُ بثَلاثةِ أَعْوام: «هَلْ سَيسـخطُنا الشّيْخُ مَخلوف قِردَةً أم غِرْبانًا؟! ماذا نملكُ ليأخذَهُ مِنّا؟!».

ثم أضافَ هامسًا لِنَفْسه: «بل نملكُ عافِيَتَنا!».

لَكنّه لم يُصرّحْ بهذا لِصديقه مندور.

وَلِسُـوءِ الحظّ كانَ هناكَ شَىْءٌ هامٌّ لو عرفَهُ مسعود لازدادَ قلقُهُ، ذلكَ أنّ جرجاوى قالَ لمخلوف:

«فى ساحاتِ الحَفْرِ يَجْلِدونَ رَئِيسَ عُمّالِ الفوجِ عشْرينَ جَلْدَةً ويَخصمونَ مِنْ أجْرِهِ خمسـةَ عَشَـرَ يومًا، عُقوبةً عَنْ كلّ فَرْدٍ من أفْرادِ الفَوْجِ يَتمرّدُ على حراسةِ رئيسِهِ ويهربُ، لذلكَ فإنه مَسْموحٌ لِرَئيس العُمّالِ أَنْ يجلدَ عُمّالَهُ الذينَ تحتَ حراستِهِ لكى يتفادَى الجَلْدَ هو نفسُهُ!!».

ومعَ ذلك فوجئَ الشَّـيْخُ مخلوف عندما وجدَ رجالَ السُّـلْطَةِ فى مَرْكَزِ مغاغةَ يطلبونَ منه أنْ يبقَى مع العِشْـرِينَ مِنْ أهلِ شـارونةَ داخِلَ حَجْزِ المَرْكَز!

قـالَ له جرجاوى: «هـذا إجراءٌ ضرورىٌ لكى يظلُّـوا تَحْتَ رقابتك المُباشـرة المسـتمرّة!.. افتحْ عينَيْكَ وأذنيْكَ جيّـدًا لتعرفَ لحظةً بعد لحظة ماذا يُدبّرونَ من خَلْفِ ظَهْرِكَ!!».

ثم أَخذَ جرجاوى مندوبُ الشَّرِكَةِ خمسةَ فلاّحينَ اقتنصَهم من قريةِ الشَّيخ فَضْل المُجاورَةِ لشـارونةَ، وأضافَهم إلى العِشْرينَ الذينَ يحرسُهم مخلوف، لأنَّ كلَّ رئيس عُمّال جعلُوه مَسْـئولاً عنْ خمسـةٍ وعشـرينَ على الأقلِّ مِنَ الفلاّحينَ المُسَخّرِينَ فى ذلكَ الفَوْجِ للعَمَلِ فى حَفْرِ صَحْراءِ السُّوَيْسِ.



وقد وجدَ مسـعود نفسَـهُ داخلَ مَرْكَزِ مَغاغةَ مَحْشـورًا مَعَ ثلاثمائةٍ آخَرينَ أخَذُوهم منْ مُختلفِ قُرَى المَرْكَزِ حَتّى ضاقَ بهم الحَجْزُ.

قالَ مسعود لصَديقه «مندور»، وقد تَعذَّرَ عليهِمَا أنْ يَجدَا مَكانًا كافِيًا للنَّوْمِ عَلى بَلاطاتِ الأرضِ الحَجَريّةِ:

«لماذَا يَضعونَ على البابِ هؤلاءِ «القَوّاصَةَ» (رجالَ شُرطةِ ذلكَ الزّمَنِ) المُسـلّحينَ بهذه البنـادقَ الطّويلةِ؟! إنّ رجالَ الأمـنِ هَؤلاءِ يُعاملونَنا كأننا مُذنبون مُتّهمـونَ فى جنَايات؟! ما الذى يَنْتظرُنا فى حَفْرِ هذهِ القَناة حَتّى يتوقّعوا أنْ نـهربَ فى كلِّ لحظة؟!».

قالَ مندور: «المُصيبةُ أنهم أجْبَرونا علَى أنْ يضعَ كلُّ واحد منّا بَصْمَةَ السّبابةِ والإبْهام عَلى أوراق قَالُوا إنهَا عقودُ العَمَلِ مع الشّركة، بغَيْرِ أنْ يفهمَ أحدُنَا هذَا الذى بَصَمْنا عليهِ.. هل تسمحُ لهم هذهِ العقودُ بحَبْسنا فى هذَا السّجْنِ؟!».

وسَمِعَ مَخلوف العبارةَ الأخيرةَ التى قالَها مندور لمسعود، فانقضّ عليهما بعَصاهُ وهو يَصيحُ: «بماذا تتهامسان؟! إيّاكما والتفكيرَ فى الهَرَب!».

ثم «لَسَعَ» كلاًّ منهمَا عَلى كتفَيْه عدّةَ مرّاتٍ بطُول عصاهُ، فقفزَ مسعود واقفًا وتَشبّثَ بالعصا بيدَيْه وهُوَ يَصيحُ:

«مَنْ هَذا الذى تَحدّثَ عَن الهرَب؟! وماذا تُريدونَ منّا حتى تَخافوا كلّ هذا الخوْفِ منْ أَنْ نَهرُبَ؟!».

ولم يسمعْ مخلوف بقيةَ عبارةِ الصبىّ الغاضبةِ، فقد اسْتَشاطَ غيْظًا وهو يستخلصُ العصا منْ بَيْنِ يدَىْ مسعود لينهالَ بها كالمَجْنون فوقَ كلّ جُزْءٍ من جسدِ الصّبى، فألقَى مندور نفسَهُ بينَ صديقه وشَيْخ البَلدِ الذى فقدَ زمامَ نَفسِه، بينمَا أسرعَ بقيةُ شباب شارونةَ يُبعدونَ «مخلوفَ» عن مسعود وهم يَتصايَحونَ.

صاحَ مخلوف فى الشّباب: «هل رأيْتُم كيف يَتحدّانى هَذَا العيّلُ؟! أنا شَيخُ البلدِ كيفَ يجرؤُ هَذَا الولدُ عَلى الصّياح فى وجْهى؟!».

ولم يُحاولْ واحدٌ منَ الشباب تذكيرَ شَيْخ البلدِ بأنه الذى اعتدَى بغَيْرِ مُبرّر على الصبىّ، بل اكتفَوْا بإبعادِ مسعود عَنْ عصَا مَخلوف بغَيْرِ أَنْ يهمسَ أحدُهم بكَلمَةٍ.

لكنّ «مندور» لم يستطعْ مَنْعَ نفسه مِنَ الهَمْسِ فى أذُنِ مسعود خلالَ لحظةٍ تَأكّدَ فيها من ابتعاد مخلوف عنهما:

«هذا الرجلُ يكرهُكَ، ويتربّصُ بكَ مُنتظِرًا أيّةَ فرصةٍ تُتاحُ له ليُؤذيكَ!».

فَتجمّدَتْ نَظراتُ مسعود وهو يُحدّقُ فى عُروقِ الأخشابِ السوداءِ التى تحملُ سَقْفَ غُرْفةِ الحجْزِ، ولم يَقُلْ شيئًا.

٦

قالَ مخلوف شَيخُ البلَد لقائد الصّنْدَل (السفينة) الذى رسَا أخيرًا على شاطئ مَغاغة، وبدأ فى شَحْن الذاهبينَ إلى القاهرة فى طريقِهم لِمُواجَهة المَجهول الذى ينتظرُهم فى صَحْراء السُّوَيْس:

«نَحْنُ فى انتظارِكُم مُنْذُ أسبوعَيْن فى حَجْز مَركز مَغاغة، بعدَ الحجزِ خمسةَ أيام قبلَ ذلكَ فى دُوّار عُمْدَة شارونة!».

قالَ قائدُ الصّنْدَل: «أنا أعملُ فى نَقْل «البلاليص»، لكننى أصبحْتُ أخيرًا أعملُ بالأمر فى نَقْل البَشر. لقد وافقَ أفندينا أخيرًا على طَلَب شركة القنَاة بمُضاعَفة عدد مَنْ تُرسِلُهم الحكومةُ لساحات الحَفْر، إلى أربعينَ ألف فَلّاح كُلّ شهر. أربعونَ ألفًا يكونونَ فى طَريق الذّهاب، فى نَفْس الوَقْتَ الذى يعملُ فيه فعلاً فى الحَفْر أربعونَ ألفًا آخرونَ، ويكون هناك أربعونَ ألفًا قد انتهَوْا من العمل وفى طريقهم للعَوْدَة إلى قُراهم... مائةٌ وعشرونَ ألفَ فلّاح يَجبُ نقلُهم من زراعاتهم وقُراهُمْ كُلّ شَهْر، فاسْتَولَت الحُكومةُ علىَ سُفُننا لأن سُفُنَ الحُكومة لم تعُدْ تَكْفِى لِنَقْل كُلّ هذه الأعداد الهائلة من المقبوض عليهم لحفر القناة، خاصةً بعدَ إرسَال جُنود الجَيْش هم أيضًا ليعملوا فى الحَفْر!».

قالَ شَيخُ البَلَد مخلوف غَيرَ مُصدِّق: «لا أظنُّ أن الشركةَ تستخدمُ جُنودَ الجيْش فى الحفْر، وإلا فلمَاذا يجمعونَ الفَلّاحينَ الذينَ أحرُسُهم من أبْناءِ القُرَى؟!».

قالَ قائدُ الصّنْدَل: «ومَنْ قالَ إنّ جُنودَ الجَيْش قد عَمِلوا فعلاً فى الحَفْر؟! لقد حَمَلْتُهم سَفينتى هَذه مِنْ محافظة قنا إلى القاهرة ومنها سَافروا بالقطار إلى صَحْراءِ السُّوَيْس حَيْثُ ساحاتُ الحَفْر. ولا أدْرى

السّببَ فِي أَنني وجدْتُهم يعودون بعدَ أسبوعَيْن إلى سَفينتى لأرجعَ بهم حَيْثُ تركْتُهم هنا فى مدينة المنيا مساءَ أمس، ومنها يُواصلونَ العَوْدَةَ إلى قُرى قنا، كلٌّ واحد بالطّريقَةِ التى يُمكنُه استخدامُها، حتى المَشْىَ على القدمَيْن!».

سـأَلَ شَيْخُ بلدةِ شارونةَ بدهشةٍ: «هَذا غَريبٌ جدًّا!! هل عرفْتَ لماذا عَادوا بهذه السُّرعة؟».

هنا تَشـاغَلَ قائدُ السـفينة بعمله فِي قيادة الصّنْدَل الذى بدأَ يشـقُّ طريقَـهُ إلى القاهرة، فأدْرَكَ مخلوف أنّ الرجـلَ تنبّهَ إلى إفراطِه فى الحديث فتوقّفَ لا يُريدُ أنْ يحكىَ أكثرَ ممّا حكى.

لكنّ أحدًا منهمَا لم يتنبّهْ إلى أنه، بالقُرْب منهمَا، التفّ صبىٌّ حَوْلَ نفسـهِ وقد تَغطّى بجوالٍ منَ الخيش فلم يظهرْ منه شَىْءٌ، كانَ يُصغى بانتباه شـديدٍ إلى كلّ كلمةٍ تمّ تبادُلها فى ذلكَ الحديث العَجيب بين قائد الصّنْدَلِ ومخلوف، خاصّةً حكايةَ عَوْدَة جُنود الجَيْش السّـريعَةَ غَيْرَ المَفهومَةَ منْ سَاحات الحفْر!!

سَـأَلَ مسعود نفسَهُ وهو يسـتَعيدُ كُلّ كَلِمَةٍ فى ذلكَ الحديثِ الذى لم يقصدْ أَنْ يسـتمعَ إليه: «هَلْ يُمكنُ أَنْ أجدَ عِندَ قائد هذه السفينةِ التى تَحملُ الذّاهبينَ والعائدينَ إلى صَحْراءِ السُوَيْس، أيّةَ معلُومَات تقودُنى إلـى معرفةِ مصيرِ أخِى الأكبرِ مصطفى، الـذى ذهبَ لحفْرِ القَناة منذُ أكثرَ مِنْ ثلاثةِ أشهُرٍ ثم انقطعَتْ أَخبارُهُ؟!».



ورغمَ رقابةِ مخلوف للصبىّ مسعود، فقد استطاعَ الفَتى أَنْ يَتسلّلَ ذاتَ مَساءٍ إلى جِوارِ الرّيّسِ عبد الحفيظ قائدِ السّفينةِ وهو جالسٌ أمامَ عجلةِ

القِيادة الكبيرةِ، يشعرُ بالمللِ ويُرحّبُ بمَنْ يتبادَلُ معه أىّ حديثٍ.

سألَهُ مسعود: «قُلْ لِى يا عمّ الرّيّس.. هَلْ حدثَ أنْ عادَ على سفينتكَ بعضُ مَنْ سَافروا للعملِ فى حَفْرِ قَناةِ صَحْراءِ السُّوَيْسِ؟».

قالَ الرّيّسُ: «نادرًا.. فهذه السفينةُ اسْتأجرَتْها الحُكومةُ منى لاسْتخدامها فى نَقْلِ عُمّالِ الحفْرِ من الصّعيدِ إلى القاهرةِ. أما عندَ عَوْدَتهم منْ ساحاتِ الحفْرِ، فالحُكومةُ تتركُ الفلاّحينَ يعودونَ من القاهرةِ إلى قُراهم بمَعْرفتِهم، إلا إذَا كانَ هناكَ خطُّ سكّةِ حديدٍ فهم يستخدمونَهُ بغَيْرِ مُقابلٍ. ولأنه لا يوجَدُ خطٌّ للسكّةِ الحديدِ منَ القاهرةِ إلى الصعيد فالفلاحونَ يعودونَ كلٌّ واحدٍ بطَريقتِه، وهُم - عادةً - يستخدمونَ السُّفُنَ الشّراعيّةَ التى يتبرّعُ أصحابُها باصْطحَابهم إلى أقرب شاطئٍ للقُرَى التى جَاءوا منهَا».

سألَ مسعود: «وهَلْ يَعودونَ - كلُّهم - منَ الحفْرِ إلى القاهرةِ؟».

قالَ عبدُ الحفيظ: «كَثيرونَ يتخلّفونَ فى ساحاتِ الحفْرِ!».

سألَهُ مسعود: «وهل عرفْتَ سببًا لتَخلُّفِ هؤلاء فى صَحْراءِ السُّوَيْسِ؟».

قالَ عبدُ الحفيظ: «هم لا يَتخلّفونَ برغْبتِهم». ثم تَمَهّلَ لِيَقولَ: «لَكنْ.. لماذا تَسْأَلُ؟!».

قالَ مسعود: «لى أخٌ أخذُوه إلى هُناكَ مُنْذُ أكثرَ منْ ثلاثةِ أشهُرٍ ولم يَرجعْ حتّى الآنَ».

قالَ رَيّسُ المَركب: «الأخْطارُ هناكَ كَثيرةٌ..».

ثُمّ اسْتدرَكَ قائلاً: «لكنّ الأخطارَ تُحيطُ بالإنْسانِ فى كلّ مَكانٍ!».

عادَ مسعود يَسألُ: «هل حَدّثكَ أحدُ العائدينَ عَنْ بعضِ تلكَ الأخْطارِ؟».

قالَ الرّيِّسُ عبدُ الحفيظ: «الوباءُ.. انهيارُ الرِّمال.. العَطَشُ!».

صاحَ مسعود: «تقولُ العطش؟! لَيْسَ أكثرُ منَ الماءِ فى بَلدنا!».

قـالَ الرّيِّـسُ عبدُ الحفيـظ: «الحفرُ يتـمُّ فى صَحْراءَ.. فـى الرمالِ والصّخْـرِ... أقـربُ تُرْعَةَ ماءٍ عـذبٍ تنتهى عَلى مبعـدةِ أربعةِ أيامٍ سَـيْرًا عَلى الأقْدامِ منْ ساحَاتِ الحفرِ... أنْصَحُكَ أنْ تأخذَ معَكَ قُلّةَ ماءٍ ولا تَتخلّى عنها أبَدًا».



فى تلكَ اللحظةِ سادَ السفينةَ المُزدحِمَةَ المُكدّسَةَ بالبَشرِ هَرَجٌ شديدٌ، فانقطعَ حَديثُ مسعود مع قائد السفينة الذى جاءَ إليه أحدُ البحّارةِ يقولُ مُنفعلاً:

«اكْتَشـفَ رئيسُ عُمّالِ قريةِ الكُومِ الأحْمرِ المُجاورةِ لشـارونةَ هَربَ أحدِ القادمينَ منْ قريتِه وتَحْتَ حراسَته».

وعلى سَـطْحِ الصّنْدَلِ وقفَ عَشَراتُ الرّجالِ فى حلقةٍ يتوسّطُها ثلاثةٌ منَ «القوّاصةِ»، وقد أمسكوا برئيسِ عُمّالِ الكُومِ الأحْمَرِ وطَرحُوه أرضًا تنفيذًا لأمرِ مُعاونِ البوليسِ (ضابطِ شُـرطَةِ تلكَ الأيّامِ) الذى أرْسَـلَتْهُ مُديريـةُ المنيا لحراسَـةِ عُمّالِ حَفْرِ القَناةِ على ظَهْـرِ الصّنْدَلِ وهُم فى طَريقهم منَ الصعيدِ إلى القاهرةِ. ثم أمسَكَ اثنانِ بساقَى الرّجُلِ وكشفُوا عـنْ قدَميْه، وبَعْدَها انهـالَ الثالثُ بعَصا عَلى باطـنِ القدمَيْنِ يضربُهُ بقَسْوَةٍ عشْرينَ ضربةً، لأنه أهْمَلَ فى حراسَةِ عُمّاله!!

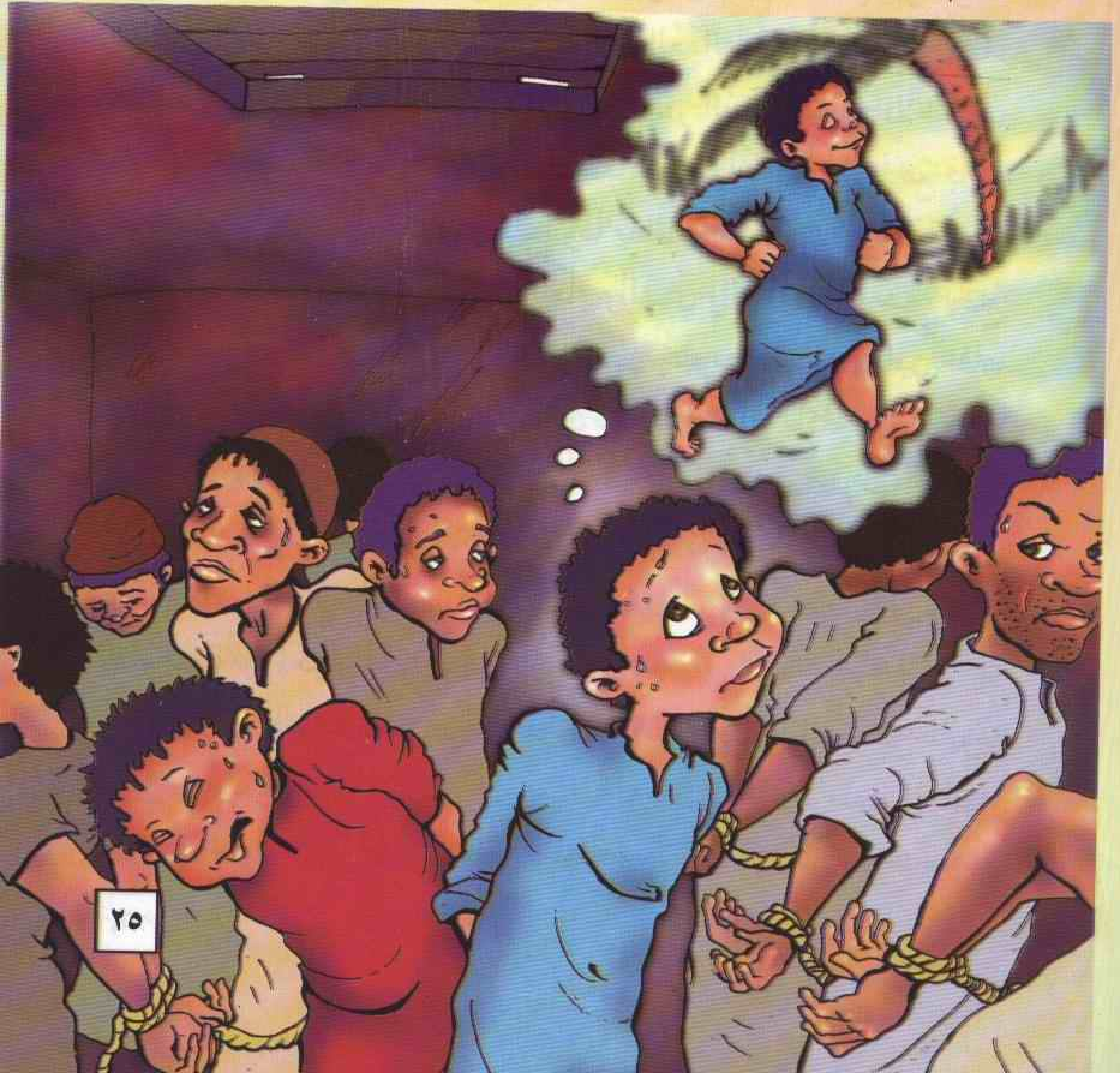
وفـى الحالِ أصدرَ مخلوف أمـرًا للفلاّحينَ الذينَ تَحْتَ حِراسَـتِهِ بالنُّزولِ فورًا إلى بَطْنِ الصّنْدَلِ.

وفى ظَلامِ المَخْزنِ المُتَّسِعِ وَسَطَ الرّوائحِ الفاسدة، وجدَ الصبىُّ مسعود

نفسَـهُ مع صديقه مندور وبقيةِ الرّجال منْ شـارونةَ وقـدْ تمّ رَبْطُهم الواحدَ إلى الآخر بحَبْلٍ غَليظ أمسكَ شَيْخُ البلد بطَرَفه.

قالَ مسعود لنَفْسـه: «لَيْتَنى كُنْتُ أنا الذى قفزْتُ إلى الماءِ هاربًا من هذه السـفينة، لأَسبحَ فى هُدوءٍ إلى الشاطئ ثم أعودَ مَشْيًا إلى شارونةَ حَيْثُ أخْتَبئُ هُناكَ فى أىِّ مَكانٍ، لكى لا أتعرّضَ لِلمَوْتِ عَطَشًا أو دَفْنًا تَحْتَ الرمال وَسطَ صَحْراءِ السُّوَيْس».

ولم يكُنْ يعرفُ أنّ هناكَ أسبابًا أُخْرى لِلمَوْتِ فى تلك الصّحْراءِ!



أخيرًا رسَا الصّنْدَلُ عَلى ساحِلِ بُولاق بالقاهـرة، لَكنّ «مخلوف» رفضَ أنْ يُفْرجَ عَنْ مسعود ورفاقه منْ بَطْن الصّنْـدَل، انتظارًا لمَعْرفة مَوْعد قيام القطار الذى سينقلُهم منَ القاهرةِ إلى بنهَا ثُمّ الزقازيق فى طريقهم إلَى ساحَات الحفْر.

وبعدَ ساعات، عندما صَعدَ مسعود إلى سَطْح الصّنْدَل، أدهشَتْهُ الحركةُ التِى يموجُ بها شاطئُ النيلِ عندَ بُولاق (عام ١٨٦١)، وأصواتُ المَطـارق التى تُدوّى بغيْر انقطاع، ومئاتُ العُمّال وقد انهمَكُوا فى بناء السُّفُن أو إصلاحها، وحَوْلَهم دكاكينُ التُّجّار الذينَ يبيعونَ الأخشابَ والحِبـالَ وغيْرَها، منْ مُسْتلزمات صناعة وصيانَة السُّفُن، مع باعَة جائلينَ يبيعونَ «الطّعْميّة والمُشَبّك» وما يُماثلُها من أطعمة شعبيّة.

ومع أنّ «مسعود» لَمْ يأكل إلا البَتّاوَ والمِشّ والبصَل والملوحة وبضْعَ بَلَحـات وحَبّتَيْن منَ الكشْك المَصْنوع من حُبوب القمْح واللّبَن، فإنّ الصّبى لم يطُف بخاطره أنْ يشترى شيئًا مُختلفًا يأكلُهُ من شاطئ بولاق، فلم تكُنْ معَهُ أيّةُ نقود، مثْلُهُ فى هـذا مثْلُ معْظَم أهل قريته الذيـنَ لم يعرفُوا التّعامُلَ إلا بالمُقايضة، إذا فاضَ عَنْ أحدهم شَـىْءٌ منْ غلّة أو بَيْض دَجاج، يُبادلونَهُ بالسُّكّر أحيانًا، وبالدُّخَان لمَنْ يُدخّنون النّارْجيلَةَ فى أحيان أُخْرى.

وسَرْعانَ مَا انتزعَهُ مخلوف منَ الفُرْجَة ليَسيرَ معَ بَقيّة الفوْج فى طابور طويل، يَقْطَعُونَ شارعَ بولاق الترابىّ المَرْشوش بالماء، يَحْرُسُهم القَوّاصَةُ من على الجانبَيْن فى طريقهم إلى محطّة القطارات فى «باب الحديد».

كانَـتْ تلكَ هِـىَ المرة الأُولـى التى يَرَى مسـعود ومَنْ معَـهُ مدينةَ القاهرةِ المَحْروسـةِ، لَكِـنّ صَيْحاتِ مخلوف الغاضبـةَ وطَرَفُ عصاهُ اللاسِـعَةَ جعلَتْ هَمّ كلِّ واحـد منهم أن تنتظِـمَ خُطواتُهُ مع خُطواتِ الذيـن يُهَرْولونَ أمامَهُ أو خلفَهُ، لكـى لا يتعثّرَ فيقَعَ فتُصيبَهُ ضَرَباتٌ مِنْ عَصا مخلوف شَيْخ البلدِ التى لا ترحَمُ!

وعندمَا وصلَ الفلاحـونَ إلى رصيفِ محطة باب الحَديد، وجَدوا فى انْتظارهم قطارًا طَويلاً به عَددٌ لا تَرَى العَيْنُ آخرَ عَرباتِهِ، حتّى تَصوّرَ مسعود أنه لا نهايةَ لَها.

إنه قطارٌ تَمّ إعدادُهُ ليَرْكبَهُ ألفٌ وخمسُمائةِ فلاّح، ساقَتْهم حكومةُ أفنديِنا الخديوِ تَنْفيذًا لطَلباتِ الشّركةِ الأجنبيّة ليعملُوا فى خِدْمَتها لِحَفْرِ قَناةٍ فِى الصّحْـراءِ بينَ مدينةِ السُّوَيْس القَديمةِ على البَحْرِ الأَحْمَر، وبورسـعيد الجَديدةِ على البحرِ المُتوسّط، والتى أطلقَتْ عليها الشركةُ هَذا الاسْمَ «ميناء سعيد» [بورسعيد] مُجامَلَةً لأفنديِنَا الخديو سعيد باشَا الذى سَخّرَ للشّركَةِ كُلّ شَـعْبِ مصرَ بغَيْرِ حسـاب، يَعملـونَ لها بنظام لا يختلـفُ كثيرًا عَنِ السُّخْرَةِ شَبْهِ المَجّانيّةِ أَوِ العبوديةِ المُتعارضَةِ مَعَ كلِّ القِيَمِ الإنسانية.

ودفعَ كلُّ شَـيْخِ بَلَد مجموعـةَ عُمّاله مِنَ الفَلاّحينَ داخـلَ عَربةٍ مِنْ عَرباتِ القطار. وعندَما لَم تتّسـع العَرباتُ رَغْمَ عَدَدِها الكَبيرِ لِكُلّ الفلاّحينَ، كَدّسوا كُلَ مجموعتَيْنِ عَدَدُهمَا معًا خمسونَ فلاّحًا فى عربةٍ واحدة، غَيْرَ مُكْترثينَ بأن يَقفوا عندمَا يتعذّرُ عليهم العثورُ عَلى مَكان للجلُوس فَوْقَ أَرضيّةِ العربة.

ووجدَ مسعود نفسَهُ داخلَ عربةِ السكّةِ الحديد، يقفُ على أرضيّةٍ من الصُّلْـبِ لَيْسَ فَوْقَها مَقاعِدُ، تُحيطُها مِنْ جوانبها الأربعةِ جُدْرانٌ هى

أقربُ إلى أَنْ تكونَ أسوارًا عاليةً منَ الحديدِ ليسَ لها سقفٌ ! !

وفــي ضَجيجٍ مُرتفعٍ أغلقَ القوّاصَةُ منَ الخــارجِ أبْوابَ العَرباتِ التى دخلَها الفلاّحونَ.

قالَ مســعود لمندور: «نَقلونا مِنْ حَبْسِ بَطْنِ الصّنْدَلِ إلى حَبْسِ سِجن هَذه العربات ! !».

قَالَ مندور: «عَلى الأقلِّ نستطيعُ هنا أَنْ نشمّ الهَواءَ ونَرى السّماءَ ! ».

قالَ مسعود وهو يتأمّل القَشّ الذى يُغطّى أرضيّةَ العَربة: «نشمُّ الهواءَ فى هذه العَرباتِ المُخصّصَة لِنَقْلِ الجمالِ والبَقَرِ ! ! إنهم يُعامِلونَنا كأننا ماشيةٌ أو دَوابُّ ! !».

وبينمَــا وقفَ مســعود ومندور يَتطلّعــانِ إلى السّــماءِ، جلسَ مُعظَمُ الباقــينَ القُرْفُصاءَ عَلى أرضيّةِ العربةِ القَــذِرَةِ، والقِطارُ يَتحرّكُ ببُطْءٍ مُتّجِهًا إلى بنهَا التى وصلَها بعدَ أربعِ ســاعات، ثم واصَلَ زَحْفَهُ حتى وصلَ الزقازيقَ بعدَ أربع ساعات أُخْرَى، والواقفونَ قد أرْهَقَهم الوقوفُ وأتعبَهم، والجالِسونَ يَتملْمَلونَ مِنْ ضيقِ المَكانِ وَرائحتِهِ ! !





فى مَحطّةِ الزقازيق، نَبّهَ مُعاونُ البوليس رجالَهُ من القوّاصَة أن يَتيقّظوا لحِراسَةِ عَرباتِ القطار، بينمَا جمعَ رُؤساءُ العُمّال ومُعْظمُهم مِنْ مَشايخ البلاد وقالَ لهم:

«هنَا فى الزقازيق سنقومُ نحنُ رجالُ الأَمْن القادمونَ منَ المُديرّيات بتَسْليم العُمّال (يَقصدُ الفلاّحينَ) الذينَ أحْضَرْناهم، إلى رجالِ الشّركةِ الذينَ سَيُوقّعونَ لنا إقرارًا باسْتلام الأنْفار [ولم يتنبّهْ إلى أنه يتحدّثُ بألفاظ يَسْتخدمُها عادةً مَنْ يبيعونَ الماشيَةَ فى الأسواق العُموميّة]، وبذلكَ يُصبحُ كلُّ واحدٍ منكم مَسْئولاً مسئوليةً كاملةً عَنْ عَددِ وسَلامةِ عُمّال فِرْقَته فى مواجهةِ الشركة».

وتَمهّلَ مُعاونُ الشرطةِ قَبلَ أنْ يُكملَ حَديثَهُ: «بعدَ إتْمام عَمليةِ التّسليم والتسلُّم، ستَكونُ أمامكم أربعةُ أيام تَقْطَعونَ خلالَها المسافَةَ الباقيةَ إلى ساحاتَ الحَفْر سَيْرًا علَى الأَقْدام. لقد خَصّصوا لكم منْطقَةَ حَفرٍ هُناكَ اسمُها «مُرْتَفَعاتُ عَتَبةِ الجِسْرَ» توجَدُ بجوار بُحَيْرَةٍ مالحَةٍ اسمُها «بُحَيْرَةُ التّمساح». سَيكونُ الجُزْءُ الأوّلُ منْ طَريقكم مُوازيًا لتُرْعَةِ الماءِ العَذْبِ التى تتفرّعُ من النيل وتنتهى عندَ قَرْيَةِ «القَصّاصينَ»، وسَتكونُ القَصّاصينَ آخرَ الأرضِ المَزْروعةِ والمَعْمورةِ فى طَريقكم، بَعْدَها تَسيرونَ فى صَحْراءَ لَيْسَ بها ماءٌ ولا طَعامٌ، شَديدةُ الحرارةِ نهارًا باردَةٌ لَيْلاً. تَنَبّهوا إلى أنّ العُمّالَ يَجبُ أن يُحافظُوا على ما مَعهم منْ طَعام، فهم لَنْ يتسلّموا الجرايَةَ وهى من الخُبْز الجافّ وَحْدَهُ، إلا بعدَ أوّلِ يَوْمٍ منْ أيّام العَمَل، وقد يُحاولُ بَعْضُ العُمّال التّمرُّدَ فى الطّريقِ إذا نفَدَ ما معَهم مِنْ طَعامِ قبلَ وصُولِكم».

وأضافَ مُعاونُ الشُّـرْطَةِ: «سيكونُ كلُّ واحد منكم مَسْئولاً عَنْ مُراقبةِ سلوكِ عُمّاله أثناءَ السَّـيْرِ وحَتّى الوصولِ إلى مَنْطَقَةِ الحَفْرِ، ومسئولاً عَـنْ قِيادَتهم صَباحَ كلِّ يَوْمٍ إلى مَكانِ الحَفْرِ، والإشْـرافِ عَلى عملهم وإنتاجهم أثناءَ النّهارِ ومَنْعِ هُروبهم أثناءَ اللّيْلِ، وفَضِّ المُنازَعاتِ التى تَنْشَـأُ بيْنَهم. ولَكُمُ الحَقُّ أيضًا فى اسْتخدامِ العَصَا أو الكُرْباجِ (السَّوْط) فى ضَرْبِ وتأديبِ المُقصّرينَ منهم، أو اقْتراحِ الخَصْمِ مِنْ أُجُورِهم مهمَا بلغَ مِقْدارُ الخَصْمِ، أو تَسْليمِ مَنْ يُحاوِلُ الهَرَبَ أو التّحريضَ على عَدَمِ العَمَـلِ إلى رجالِ حمدى بكَ نائبِ أفندينـا، يَجْلدُ المُذْنبَ ويَضَعُهُ فى السّـجْنِ ويحرمُهُ مِنْ كامل أجره. ولَنْ تنتهىَ مَسْـئوليتُكم إلا بانْتهاءِ الشَّـهْرِ المُحدّدِ فى العُقودِ لعَمَلِ العُمّالِ، بَعْدَها يعودُ كلُّ عاملٍ لِيُصْبحَ فلاّحًا مَسْئولاً عَنْ نفسِه وعَنْ تَدْبيرِ أمْرِ عَوْدَتِه إلى قَرْيتِه».

٩

بَعْدَ ساعاتٍ قليلةٍ وجدَ مسعود نفسَهُ يسيرُ ضِمْنَ طوابيرَ مُتراصّةٍ مُتّجهَةٍ إلى صَحْراءِ السُّـويْس، تَتكوّنُ مِنْ آلافِ الفلاّحينَ الحُفاةِ الأقْدامِ، يَحْرُسُهم على الجانبَيْنِ عَشَـراتٌ مِنْ فُرسانِ القَوّاصَةِ رجالِ الأمْنِ، يروحُ أفرادُهم ويَجيئُونَ فَوْقَ خُيولِهم لملاحظةِ طَوابيرِ العُمّالِ، يَفْرِضُونَ عليهم حِراسَةً مُشدّدَةً.

وكانَ هـؤلاءِ القوّاصَةُ قَدْ أجْبروا «مسـعود» كمَا فعلُوا مع غيْرِه، عَلى أن يَتْـرُكَ «الزّكيبَةَ» التى بهَا طعامُهُ وقُلّةُ الماءِ التى معَهُ، ليحملَها في مُقدّمَةِ الأفْواجِ عَدَدٌ مِنَ الجمالِ كانَتْ تَسيرُ عَلى مَهَلٍ، يَتبعُها العُمّالُ فى صُفوفِهم الطويلةِ حَتّى إنّ طلائعَهم كادَتْ أنْ تَخْتفىَ تمامًا عَنْ أنظارِ الصُّفوفِ الخَلْفيّةِ، وهم يُواصلونَ السَّـيْرَ وقد ربطَهم رُؤساؤُهم بَعْضَهم

إلى بَعْضٍ بالحبالِ كأَنّهم قافلَةُ جمال أو قَطيعٌ منَ العَبيدِ.
همسَ مندور إلى مسعود: «أحسُّ بالعَطَش الشّديدِ».
هَمسَ مسعود: «تَحمّلْ.. مثْلكَ مثْلَ غيْركَ!».
قالَ مندور: «لماذا أخذوا منّا قُلّةَ الماء؟».
قالَ مسعود: «لكى لا نهربَ، لكنّ حُجّتَهم التّخفيفُ عنّا فلا نَحملُ شَيْئًا لنَسيرَ على نَحْو أسْرَعَ!».
قالَ مندور: «كيف نُسرعُ ونحنُ نُعانى العَطشَ أثناءَ سَيْرٍ طويلٍ فى يَوْم حارّ وسطَ هذه الصّحْراء؟!».
وَفَجْأةً انْقَضّ عليهمَا مخلوف بعَصاه صائحًا: «لماذا هذا التّباطُؤ؟! توقّفا عَن الكَلام وَواصلاَ السّيْرَ بسُرْعَة!».
وكانَ التّعَبُ والإرهاقُ قد بلغَا منهمَا مبلغًا عظيمًا عندمَا توقّفت القافلةُ أخيرًا، واسْتَردّ العُمّالُ «قُلَلَ» الماءِ وزكائبَ الطّعام مِنْ فَوْقِ ظُهور جمال المُقدّمَة.



وقبلَ مَغيبِ شمس اليوْم الثّالث على هَذه المَسيرَة الطّويلَة الشاقّة، [وكانَتْ قافلَةُ الرّجالَ الضّخمةُ قد قضَتْ ذَلك اليوْمَ كُلّهُ فى الصّحْراء لا تقعُ عيونُهم إلاّ عَلى الرّمال]، شاهدَ مسعود كما شاهدَ غيْرُهُ، سرْبًا من الحدأة قد تَجمّعَتْ فَوْقَ نُقطَةٍ منَ الصّحْراء التى كانُوا يَشُقونَها ببُطْء.
قَالَ قَائدُ فرسان شرطَةِ القوّاصةِ الذى كانَ يَسيرُ بحصانهِ قُرْبَ شَيْخِ البَلَد مخلوف:
«قُلْ لَهُمْ إنّ هَذه الطُيورَ الرّمّامَةَ ومعَها ذئابُ الصّحْراء أيضًا، تنهشُ جَسَدَرجُل حاوَلَ الهربَ من ساحاتِ الحَفْرِ فقتلَهُ العَطَشُ فوقَ رمالِ الصّحْراءِ وتَحتَ لَهيبِ الشّمْسِ».

وارتجفَ قَلْبُ مسعود فى صَدْرِه وقد تَذكّرَ أخاهُ مصطفى. فقد كانَتْ تلكَ هى أوّل مُواجهَة له معَ أسباب الهَلاك المُريعة فى ساحات حَفْر قَناة السُويْس.

وخِلالَ اليَوْم الرّابع من السّيْر فى الصّحْراء، شاهَدَ مسعود قافلةَ جمالٍ طَويلةً يَحمل كُلُّ جَمل منهَا برميلَيْن.

وَقَدْ عرف فيمَا بَعْدُ أنهَا قوافلُ نَقل الماء إلى المُسخّرينَ فى ساحات حَفْر القَناة، وأنهَا الوسيلةُ الوَحيدةُ لِوُصول الماء الصّالح للشُّرْب إلى العُمّال المُجْهَدينَ بالعَمل هُناكَ فى حَرّ الصّحْراء، وأنّ رِحْلَةَ جمالَ قافلة الماء تستغرقُ عادةً أربعةَ أيام، وعندمَا تَهبُّ عواصفُ الرّمال الشّديدةُ العاتيةُ فتمنعُ تلكَ القوافل منْ مُواصلَة سَيْرها، أو عندمَا تَضلُّ القَوافلُ الطّريقَ فتتأخّرُ ولو يَوْمًا واحدًا، فإنّ العُمّال فى ساحات الحَفْر يَتَساقَطونَ مَوْتى مِثْلَ الذُّباب نَتيجةَ الإرْهاق والعَطَش، ويَلْفظونَ آخرَ أنفاسهم قبْلَ أنْ تصلَ تلكَ الجمالُ بما تَحْملُ منْ براميل، وأنّ عَشرات الآلاف منْ هؤلاء الفلاّحين الذينَ انتزعَهم رجالُ حُكومة أفندينَا منْ حقولِهم لإجبارهم على العَمَلِ فى حَفْرِ قَناة السُويْس، لم يَعودوا - أبدًا - إلى أولادهم وزَوْجاتِهم وأمّهاتهم بسَبَب العَوائق القاتلة التى كانَتْ تُؤخّرُ قوافلَ جمال نَقْل الماءِ عنِ الوصولِ إلى ساحاتِ الحَفْرِ فى مواعيدِهَا المُقرّرة.



وبعدَ ذلكَ السّـيْرِ الطويل المُرهق فوقَ رمال الصّحْراء، وصلَ مسـعود ومندور وبَقيّةُ رجالَ شـارونة إلى منطقَة «مُرْتفَعات عَتبة الجسْـر»، الواقعة فى مُنتصَف الصّحْراءِ بينَ السُـوَيْس وبورسعيد، وهى المَنْطَقةُ التى عُرفَتْ فيما بعدُ باسم «الإسماعيلية» مجاملة لإسماعيل باشا الذى أصبحَ خديو مصْرَ بعدَ وَفاةَ الوالى سعيد.

كانَ وصُولَهم معَ الغروب، ومـعَ ذلكَ اضطرّ الرّجالُ إلى الوقوف فى طَابـور آخرَ، قَالوا لَهم إنَـه «طابورُ الفرْز» الذى لا يَجـوزُ أنْ يتأخّرَ ولو يومًا واحدًا، لأن الفوْجَ السابقَ الذى كانَ يعملُ فى الحفْر قد أنهىَ فـى ذلكَ اليوم آخرَ أيام عمله، ولابدّ أَنْ يحلّ الفوْجُ الجديدُ مَحَلّهُ منذ صَباح الغد، لكَى لا يتوقّفَ العملُ فى حفر القناة يومًا واحدًا.

وأخَذَ رجالُ الشركة يَفحصونَ العُمّالَ كما يفحصُ المُشْترونَ الدوابّ...

هذا ينضمُ إلى «فريقَ الأقْوياء» من الرجال، يُسـلّمونَ كلّ رجل منْهم فأسًا يضربُ بهـا الأرضَ والصَخرَ لحَفْر مجرَى القَناة وإزاحة التلَال من طريقهـا، خاصة فى منْطقَة «مُرتفعات عَتَبة الجسْـر»، التى كانَ على عُمّال شارونة تحطيمُ تلال صَخورها التى يبلغُ ارتفاعُها عشرينَ مترًا.

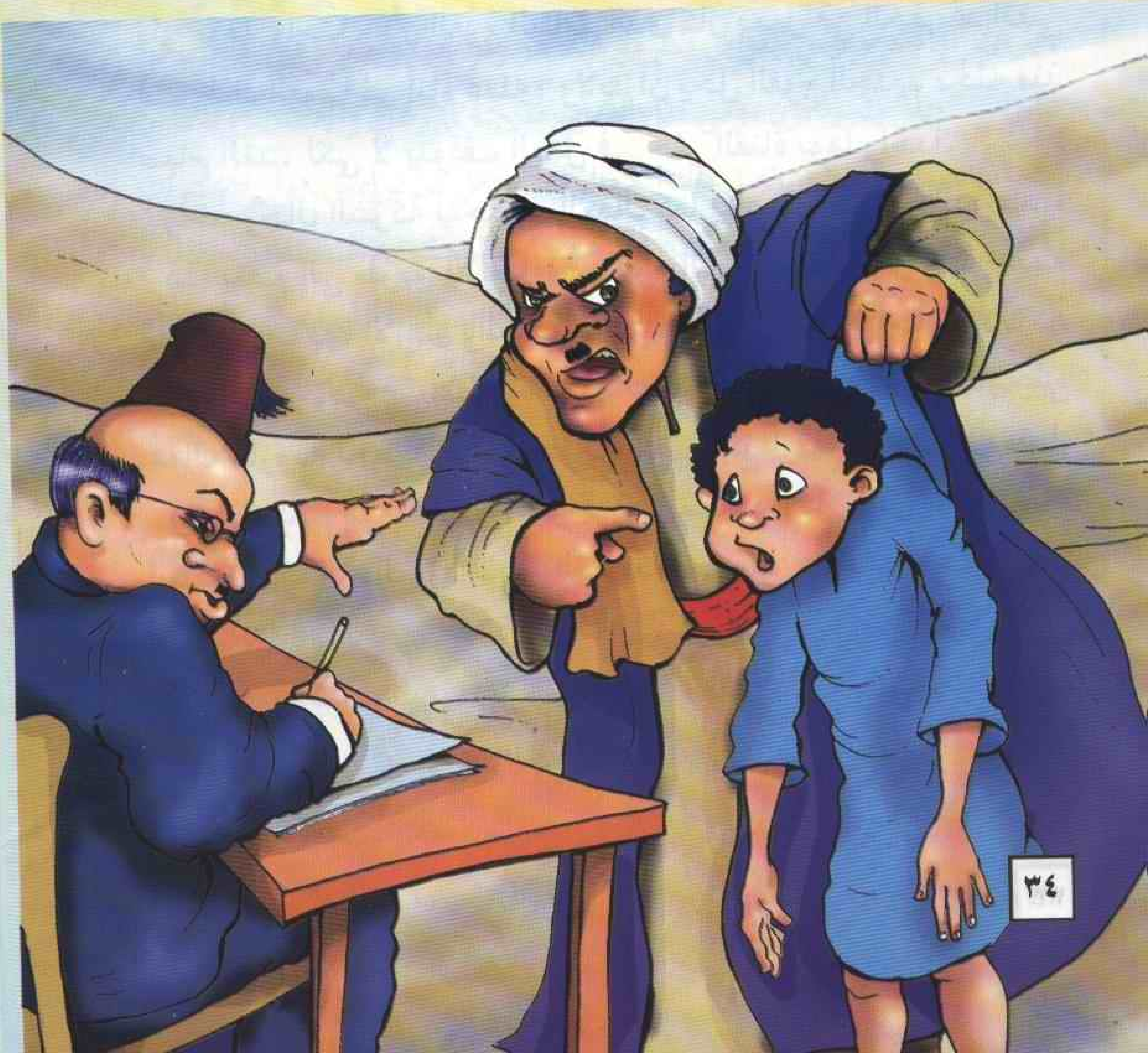
وَهـذَا ينضمّ إلى «الفريق الأقل قوة»، يُسـلّمونَ كُلّ رجل منْهم «قُفّة» ليَضـعَ فيها الرّمالَ والأحجارَ التِى تتخلّـفُ عَنْ عمليات الحَفْرِ ليُلقِىَ بها بعيدًا عَنْ مَجْرى القناة.

أما صغارُ السنّ الذينَ تقلّ سـنُّهم عن اثنتَىْ عشـرةَ سـنةً، فعملُهم الأساسـىُّ حمْلُ قرَب الماء الجلدية، يَصُبُّونَ الماء مـنَ القربَة فى القُلَلِ التِى يشربُ منهَا العُمّالُ.

وعندمَا جاءَ دورُ مســعود أمامَ مُوظّفِ الشــركةِ الذى يقومُ بعملياتِ الفَرْز، فوجئَ بشَــيْخِ البلدِ مخلوف يتطوّعُ لِيَقولَ للمُوظّفِ وهو يُشيرُ إلى مسعود: «هذا يصلحُ تمامًا لنَقْلِ مُخلّفات الحَفْرِ».

ولم يتردّدِ المُوظّفُ فِى أَنْ يُشـيرَ لمسعود لِكَىْ ينضمّ إلى «الفريقِ الأَقل قوة»، بغَيْرِ أَنْ يكونَ هناك مَجالٌ للمناقشةِ أو الاحتجاج لِصغَرِ سنِه.

قالَ مسعود لنفسِــهِ: «هَاهُوَ مخلوف الرّذْل يُؤكّدُ أنه لَنْ يَتوقّفَ عنْ معركتِهِ ضِدّى!».



وقبلَ شُـروقِ شَـمْسِ صَباحِ اليَوْمِ التالى، بدأَ أوّلُ أيامِ عملِ مسـعود فِى الحفرِ.

خلعَ - مَـعَ بقيّةِ الفلاّحينَ - جلبابَهُ الأزرقَ، وألقَى به عَلى الأرضِ بجوارِ قُلّةِ الماءِ التي يشتركُ فى الشُّرْبِ منها مَعَ عددٍ منْ زُمَلائه.

وسـلّمَتِ الشـركةُ إلى مخلوف «كُرْبَاجًا» منَ الجلْدِ المَجْدولِ، وَقَالوا له: «لا تَتَردّدْ فِى استخدامه لمَنْ يتباطأ أو يتهاوَنُ فى العملِ!».

وبدأَ مسعود العملَ.. يهبطُ بالقُفّةِ فارغةً إلى قاعِ القناةِ حَيْثُ يملؤُها بالصخُورِ والأحجَارِ التِى حطّمَها رجالُ «الفريقِ الأقْوَى»، ثم يحملُها فَوْقَ كَتِفه ويصعدُ إلى جِسْرِ القناة ليُفرِغَها، ثم يهبطُ مرّةً أخرى ليُعاودَ نفسَ العمل.

كانَ ينزِلُ مع طابـور النّازلينَ ويصعدُ مع طابور الصّاعدينَ، بإيقاعٍ واحدٍ سريعٍ مُتكرّرٍ لا يسمحُ لأحدٍ بلحظةٍ منْ راحةٍ أو تباطُؤٍ.

لكنَّ «مسعود» كانَ أصغرَ أفرادِ الفَوْجِ سِنًّا وأقلّهم وَزْنًا وقُوّةً، لذلكَ كانَ أوّلَ مَنْ تَسلّلَ إليه الإجْهادُ.. لقدْ كانَ يكفَى بالنسبةِ إليه أنْ يحملَ قِرْبَةَ ماءٍ!

وقاوَمَ مسـعود بكلّ عزيمته حاجتَهُ إلـى الجلوسِ فَوْقَ كومةِ أحجَارٍ ليستريحَ لحظاتٍ قبلَ أَنْ يملأَ «قُفّتَهُ»، لكنْ عندما أَحسّ أنه أوْشَكَ علَى السـقوطِ فوقَ الأرضِ منَ الإرهاقِ، اضطُرّ أخيرًا أن يجلسَ بجوارِ قُفّتِهِ وهو يلهـثُ، وقَدْ ملأَ العرقُ وَجْهَهُ وانحدرَ علَـى عينَيْهِ فأحرقَهما،

فتوَقّفَ رجلٌ أو اثنانِ عَنِ العملِ يَتطلّعانِ إليه فى استطلاعٍ وإشفاقٍ.

وكأنّ «مخلـوف» لم يكُن ينتظرُ إلا هَذه اللحظةَ، فانْقَضّ «بكُرباجِهِ» على جَسَدِ مسعود، يضربُهُ فِى كلِ موضعٍ وهو يصيحُ به:

«أنتَ تُحرِّضُ العُمّالَ على العِصْيان.. قُمْ.. تحرّكْ.. احملْ قُفّتَكَ.. أسْرِعْ..».

بينما مسعود يصيحُ فى ألم وغضب وهو يحاولُ بغَيْرِ جَدْوَى أنْ يَحْمِىَ وجهَهُ وكتفَيْه منْ لسعات السَّوْطِ مُستخدمًا ذراعَيْه وكَفَّيْه.

وَمِنْ سوءِ حظِّ مسعود أنَّ «حمدى بك» القاسى، نائبَ أفندينا الخديو، كانَ يمرُّ فى تلكَ اللحظةِ بجوار مَنْطَقَةِ عمل رجال شارونة، فتوقَّفَ فوقَ حصانِه، وأرسلَ رِجالَهُ القوّاصَةَ لإحضار المُذنِب أمامَهُ!

واندفعَ مخلوف يقولُ فى حماس شاكيًا الصّبىّ مسعود لحمدى بك، كأنما ليُثْبتَ إخلاصَهُ المُتناهىَ لِشَرِكةِ حفرِ القناةِ ولأفندينا:

«هذا النفرُ يُحرِّضُ بقيةَ الرجالِ عَلى الجلوسِ والامتناعِ عَنِ العملِ مُتعلّلاً بأنه صغيرُ السنّ!!».

وبغَيْرِ أَنْ يستمعَ «البكُ» إلى كلمة من مسعود، ودونَ أنْ يُلقِىَ عليه نظرةً فاحصةً ليعرفَ فعلاً أنه مُجرّدُ فتًى صغيرٍ، أصدرَ أمرَهُ بغَيْرِ تردُّدٍ:

«ألْقوا بهذَا المُتمرّدِ فِى السّجن».

وبعدَ الغروبِ وقبلَ أنْ يتناولَ رِجالُ شارونةَ عَشاءَهم، أمرَهم القوّاصةُ - رجالُ أمنِ حمدى بك - بالتجمُّعِ فِى حلقةٍ وسطَ المكانِ المُخصّص لمبيتِهم.

لم تكُنْ هناكَ خِيامٌ ولا أكشاكٌ للمبيتِ، بلْ كَانوا ينامونَ فِى العراءِ عَلَى الأرضِ وفوقَهم السماءُ، بعدَ أنْ قالَ لهم رجالُ الشركةِ: «كأنّكم فِى حقولِكم.. هَلْ تنامونَ تحتَ خيام وأنتم تحرسونَ زراعاتِكم ليلاً؟! أمّا إذَا شعرْتُم بالبردِ فسنُعطيكم أخشابًا تُشعلونَ فيها النارَ للتدفئةِ».

وكانَتْ هَذه هى «البيوت» التى جاءَ ذكرُها فى الإعلانِ الذى علّقوهُ فَوْقَ بابِ مسجدِ شارونةَ لدعوةِ الفلاّحينَ للعملِ فِى حفرِ القناةِ، والذِى قَالُوا

فيه إنّ الشركةَ قد أَعدّتْها لراحَتِهم!!

وَفِى وسطِ حلقةِ الفلاحينَ، فَرشَ رجالُ «البـك» على الأرضِ قطعةً كبيرةً منْ جِلْدِ البقرِ، كانَ الموظفون الأجانبُ فى الشركةِ يُطْلِقونَ عليها تَهكُّمًا «بيتَ العدالةِ المصرية».

ثم ذهبَ اثنانِ منْ رجالِ الأمنِ القوّاصةِ الذينَ يتبعونَ حمدى بك إلى غُرفةِ السجنِ، وجذبَا الصبىّ «مسعود» منْ ذراعَيْه، وأجلسَاه مُتربِّعًا فوقَ قطعةِ الجِلْدِ، وكشفَا ملابسَهُ عَنْ ظهرِه العارى!..

ثم صرخَ حمدَى بك فى شَيْخِ البلدِ مخلوفَ الذِى كانَ يقفُ مُستعِدًّا وقد شَمّرَ عَنْ ساعده: «اضربْ!».

وبكُلِّ مَا فِيه منْ قُوّةٍ، نزلَ مخلوف «المُفترِى» بالكُرْباجِ عَلى ظهرِ الصبىّ!

وتَحمّلَ الفَتَى أوّلَ ضربةٍ.. ثم بدأَ يئِنُّ مَعَ الثانيةِ.. وصرخَ مع الثالثةِ..

وأدارَ الرجالُ الواقفونَ وجوهَهم بعيدًا لكى لا يكونُوا مُشاركينَ ولو بالمشَاهدةِ فِى عذابِ زميلِهم الصغير!

وعندما وَصلَت الضرباتُ إلى العاشرةِ كانَ صوتُ مسعود قد خرسَ تمامًا، وسقطَ على جانبه فوقَ الأرض وقد فقدَ الوَعْىَ...

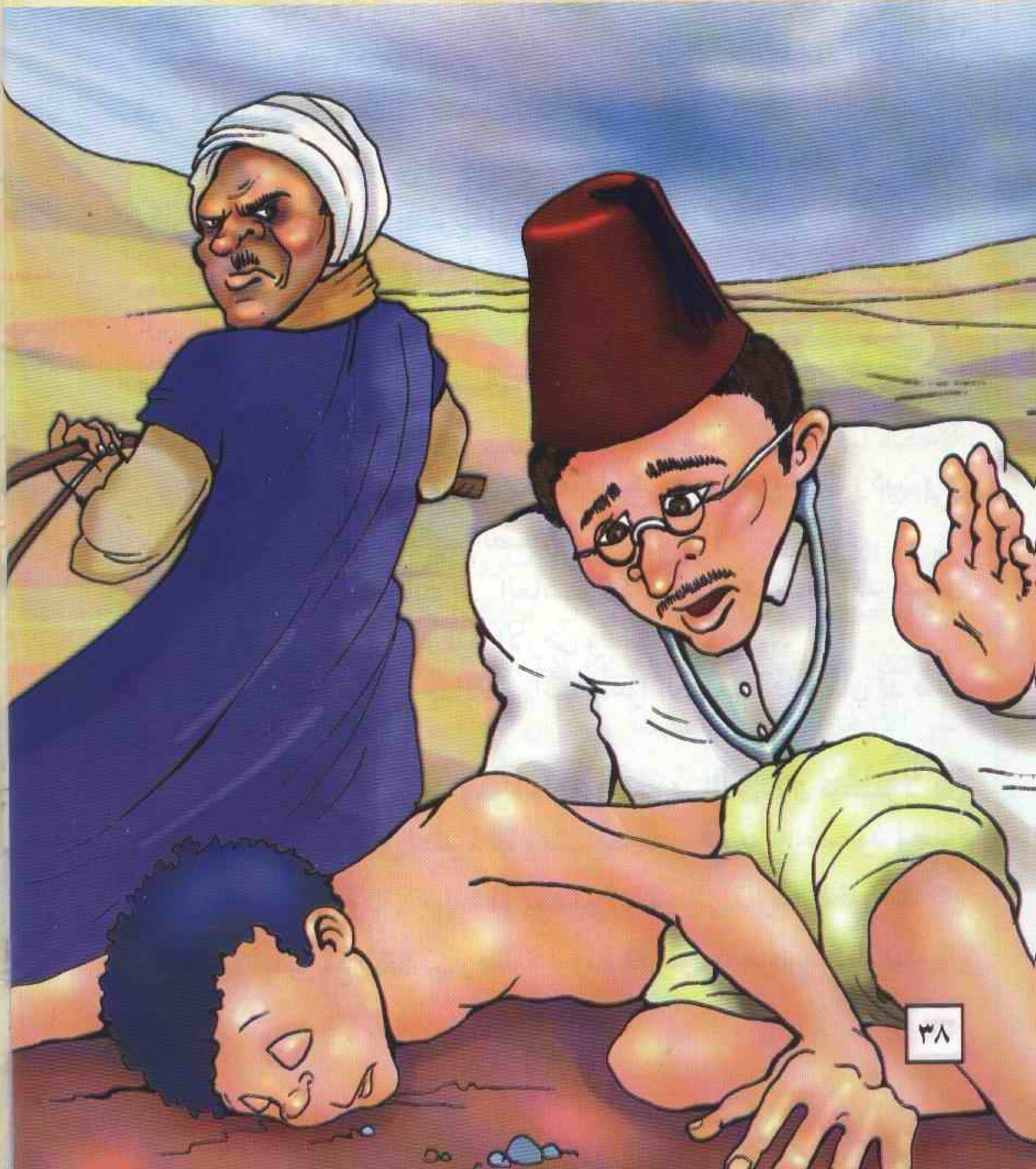
قالَ حمدى بك بغَيْرِ مُبالاةٍ: «اسْتَدْعوا الطبيبَ، فإذا كان قد ماتَ ادفنوهُ فى الرمال!».

وجاءَ الدكتورُ منصور، وهو الطبيبُ المِصْرىُّ الذى كانَ مسئولاً عَنْ تلكَ المنْطَقةِ مِنْ مناطقِ حَفْرِ قناةِ السُوَيْس، ورفعَ ذراعَ مسعود وجسّ نبضَهُ، ثم نهضَ وقالَ: «إنه لَمْ يمُتْ.. انقلُوه إلى المركزِ الطبىّ».

وتَعاوَنَ مندور مع اثنَيْنِ مِنْ رجالِ شارونةَ فحملُوا جَسدَ مسعود الذِى تسيلُ

منه الدماءُ وتكادُ الحَيَاةُ أَنْ تتوقّفَ فيه، وسَاروا خَلْفَ الطبيب.

وكانَــتْ هَذِه هى المُواجَهةَ الثانيةَ بينَ الصّبيّ الصغيرِ وأسـبابِ الموتِ فِى سَاحاتِ الحفرِ، لكنها كانَتْ مُواجَهةً داميةً!



بعدَ يومَيْنِ فتحَ مسعود عينَيْه، واستطاعَ أن يتحدّثَ مع الدكتور منصور.
قالَ لــه الطبيبُ: «لقد أعطاكَ حظُّكَ عمرًا جديــدًا، لقد فَقَدَ كثيرون قبلَكَ الحياةَ تحتَ الكُرباجِ مَعَ أَنهم كانُوا أقوى منكَ».
وفى اليَوْم التّالى حكَى مسعود للطبيب قِصّتَهُ مع شَيْخِ البلدِ مخلوف وختمَها بقَوْله:
«ولَنْ يكُفّ حَتّى يقضِيَ على حيَاتى، فهى الشّىْءُ الوحيدُ الذى أملكُهُ فــى هَذه الدنيَا، ليُصيبَ أمِّى فى صميمِ قَلْبهَا عندمَا تفقدُ ابنَها الثانِىَ فِى سَاحَاتِ الحفر!».
وجذبَتْ هذه العبارةُ حُبَّ استطلاع الدكتور منصور، فحكَى له مسعود أخبارَ عدم عودة أخيه مصطفى واختفاء أثرِه فى ساحاتِ الحفر.
ولاحظَ مسعود أَنّ أخبارَ أخيه قد أثارَت انتباهَ الطبيب بشدّة، فقد عادَ الدكتورُ منصور يســألُ «مسعود»: «تقولُ إنكَ مِنْ قريَةٍ اسمُهَا شارونَةُ واسمُ أخيك مصطفى، وإنه جاءَ هنَا منذُ حوالى ثلاثةِ شهور؟».
قالَ مسعود: «وَالدتى لا تزالُ تأمُل فِى أنْ يعودَ، لكنْ بعد مَا واجهْتُهُ أنا هنَا منْ أسباب الهلاك، لا أعتقدُ أنها سَتراه ثانيةً أبدًا».
وفى غموضٍ قالَ الطبيبُ: «مَنْ يدرى؟!.. رحمةُ الله واسعةٌ!».
وتَطلّعَ مسعود إلى ملامح وَجْهِ الطبيبِ مُتسائلاً عَمّا يُخفيهِ خَلْفَ تلك العبارةِ، عندئذٍ قالَ له الطَبيبُ:
«إذَنْ استمعْ مِنى إلى مَا سأقولُ، فَسَأَحكى لكَ أحدَ أسرارى التِى كانَ يستحيلُ أَنْ أحكيَها إلاّ لكَ أنتَ وَحْدَكَ مِنْ بين الناس جميعًا».

قالَ الطبيبُ منصور فى صَوْت خافت:

«منذُ ثلاثةِ شـهورٍ أثناءَ قيام أفندينا الخديو بزيارةٍ إلى الوجه القبْلىّ، أمرَ بأن يُرسلوا - إلى ساحات حَفرِ القناة - خمسةَ آلافِ جُنْدىّ منْ جُنود الجَيْشِ قَاربُوا على إتمام مُدّةِ خدمتِهم العسكرية. وقد تمّ نقلُ هذَا الحشد منَ الجنودِ فى السُّـفُنِ النهريّةِ إلى القاهرةِ ثم بالقطاراتِ إلى الزقازيق، ومنْ هناك بعثَ بهم مندوبُ شـركةِ القناة إلى هنَا للمشـاركةِ فى أعمالِ الحفرِ فى نَفْسِ منْطَقةِ مُرْتَفَعاتِ عتبةِ الجسْرِ التى بها مركزى الطّبى».

وعندما وصلَ الجنودُ وعرفُوا أنّهم جَاءُوا بهم لتكسيرِ الصخورِ ورَفْعِ الأحجَارِ ونَقْلِها وحَفْرِ رمالِ الصحراءِ، احتَجُّوا قائلينَ:

«هَذا عملُ المحكومِ عَليْهم بالأشغالِ الشّاقةِ لجرائمَ عسكريةٍ كُبرى».

ورفضُوا العملَ علانيةً وطلبُوا العودةَ إلى وحْدَاتِهم، بلْ غادرَ بعضُهم ساحَاتِ الحفرِ فعلاً عائدينَ إلى مُديريتِهم فى قنا.

وقَدْ حاولَ رجالُ الشـركةِ الأجانبُ إلقـاءَ القبضِ عَلى بعضِ الجنودِ بتهمةِ أنهم حَاولُوا الهربَ منْ ساحاتِ الحفرِ، واقترحُوا عَلى حمدى بـك أَنْ يُوقِّعَ عَليهم عقوبةَ الجلـدِ العلَنيةَ لإرهابِ بقيةِ الجنودِ، لكنّ رجالَ الجيـشِ المصرىّ كَانُوا عَلى درجةٍ كبيرةٍ مـنَ الصّلابةِ، فثارُوا لكرامتِهم وتَجمّعوا فى مظاهرةٍ كبرى.

واضطرّ «دليسبس» مُديرُ شركةِ حفرِ القناة أَنْ يتدخّلَ شخصيًّا، وأصدرَ أوامـرَهُ بعدم توقيع أيةِ عقوباتٍ على الجنـودِ الذينَ رفضُوا العملَ فى حفرِ القناة، لكى لاَ تنتشـرَ أخبارُ تمرُّدِهم بينَ عُمّالِ السُّخْرةِ، وسمحَ لهم بالعودة إلى قُراهُم فى قنا.

لكنه، فى نَفْس الوقت، أمرَ بإنزال أشَدّ العقابِ عَلى أىّ فلاح آخرَ من عُمّال السُّخْرَة يُحاولُ أن يُحرّضَ بقيةَ العُمّال عَلى أنْ يَقْتَدوا بجنودِ الجَيْش فى هَجْر ساحات الحفْر!

وكانَ أوّل مَـنْ قبضُوا عليه وهـو يَحْكى لزُمَلائه خبَـرَ امتناع الجنود عَن الخضوع لإذلال السُّخْرة فى حفر القناة، وكيف خضعَت الشركةُ لَهم وأعادَتْهم إلى بلادهم، شَـابٌ عرفَتُ أنه مِنْ محافظة المنيا، ماتَ عددٌ كبيرٌ من زُمَلائه اختناقًـا عندمَا انهارَ فوقَهم جبلٌ منَ الرمال وهـم يَحْفرونَ مُرْتفعَات عتبَةِ الجسْـرِ فدفنَتْهم تَحْتها، وذلك بعـدَ أنْ ماتَ عددٌ آخرُ منهم عندمَا تأخّرتْ قافلَةُ الجِمال التى كانَتْ تحملُ لهم ماءَ الشُّرْب بسبب عَاصفة رملية شديدةٍ حاصرَت القَافلَةَ وهى فى طريقها إلى هنَا، ففقَدَ الرجالُ حياتَهم عطَشًا.

قالَ الطبيبُ: «لقد جَلَدوا ذلكَ الشّاب بقسوة ليكونَ عبْرَةً لغَيْره، وظَنُّوا أنه ماتَ، لكنّنى أخذْتُــهُ إلى المركز الطبىّ كَمَا أخذْتُكَ وعالجتُهُ إلى أن اسـتردّ أنفاسَهُ. ومعَ ذلكَ خشيتُ أنْ يقبضُوا عليه مرةً ثانيةً إذَا سمحْتُ لَـه بمغادرة المركز الطبىّ والعودة إلَـى أعمال الحفر، فأعلنْتُ أنه ماتَ وأننى أمرْتُ بدفن جُثمانَه كما أفعلُ مَعَ كل مَنْ يُتوفّى داخلَ المركز. وفى نفس الوقت كانَ هناكَ مَوتى آخرونَ بسبب انتشار وباء بينَ العُمّالِ، فلم يتنَبَهْ أحدٌ إلى أنه لم يكُنْ بينَ أصحاب الجُثث التى تَمّ دفنُها».

وختمَ الطبيبُ حديثَهُ قائلاً: «وكانَ اسـمُ هذَا الشّـابِ مصطفى، وقد أخبرَنى أنه منْ قرية اسمُها شارونة!».

وكتم مسعود صيْحَةً كادَتْ تُفلتُ منه!!

هُنـا أضافَ الدكتورُ منصـور: «وأنتَ تُريدُ طبعًا أنْ تسـألَنى: أينَ يوجَدُ مصطفى الآنَ؟ لكنّ هذَا سرٌ سأخفيهِ عنكَ مُؤقّتًا لأجل سلامتكَ وَسَلامتى!».

وبعدَ بضْعةِ أيام تَساءَلَ الدكتورُ: «أخْبِرْنى يا مسعود، هل يتعاطَفُ معَكَ بقيةُ الرجالِ القادمينَ منْ شارونةَ؟».

قالَ مسعود: «كُلُّهم يُطلقونَ علي مخلوف اسمَ «الرّذْل» ويُعانونَ منْ ظلمِهِ وقسوتِه، لكنْ يستحيلُ أنْ يفعلُوا شيئًا لأجْلى وهذَا الرجلُ يُشرفُ عَليهم».

قالَ الطبيبُ: «بعدَ أنْ تستعيدَ قدرًا منْ صحّتكَ، سأعلنُ لرجَال الشركةِ أنكَ عُدْتَ إلى الفوْجِ الذى يُشرفُ عليهِ مخلوف هذَا، وعليكَ بعدَ ذلكَ أنْ تُنفّذَ بدقّةٍ ما سأتّفِقُ معكَ عَلى أنْ تقومَ به».



وفى مساءِ أحد الأيام التاليةِ عَادَ مسعود إلى زُملائِه الذينَ يُشرِفُ عليهم مخلوف. وما إنْ رآه شيخُ البلد حَتّى صاحَ به:

«فى المرةِ القادمةِ لَنْ تنجُوَ بحياتكَ منْ كُرْباجى!!».

لكنْ فى فجرِ اليَوْم التالى، عندمَا كانَ مخلوف يَصيحُ عَلى الرجالِ أنْ يَسْتيقظوا لَيذهبُوا إلى مكانِ عَمَلِهم، اكتشفَ كلُّ أفرادِ الفوْجِ أنَّ «مسعود» قد اختفَي!!

صاحَ مندور صديقُ مسعود بصَوْتٍ مُرتفعٍ، قاصدًا أنْ ينتشرَ الخبرَ بسرعةٍ بينَ كل جماعاتِ الحفرِ:

«مسعود هربَ.. مسعود خافَ منَ انتقام شَيْخ البلد مخلوف، فهربَ...».

وبسرعة جاءَ رجالُ الشركةِ مع القوّاصةِ منْ رجالِ الأمنِ ليتحقّقوا منْ صحّةِ الخبرِ.

وَفِى الحالِ أَمَرَ حمدى بك بإلقاءِ القبضِ عَلى رئيس العُمّالِ شَيْخِ

البلـد مخلوف، لأنه أهملَ فى حراسـةِ أفرادِ الفـوْج الذى كانَ تحتَ حرَاسته، وتركَ واحدًا منْهُم يهربُ منَ العملِ فى حفرِ القناة.
ولَمْ يَضَعْهُ فى السّجن، بَلْ ساقَهُ إلى سـاحَةِ الحفرِ، وأمرَهُ أمامَ كلِّ رجاله الذينَ انتزَعُوهم مِنْ شارونةَ، قائلاً:
«اخلعْ مَلابسَكَ!».
فخلـعَ مخلوف ملابسَـهُ الخارجيةَ وألقَى بها عَلـى الأرضِ بجوارِ الجلاليب الزرقاء.
ثم أمرَهُ حمدى بك وهو يشير إلى كُومةٍ منْ أدواتِ الحفرِ:
«احملْ هَذه الفأسَ».
فَحَملَها مخلوف...
ثم أضافَ حمدى بك:
«لقـد أنزلْتُكَ إلى درجةِ نفر.. انزل الآنَ مـع عُمّالكَ إلى قاع القناة، وإيّاكَ أَنْ تُقصّرَ فى الحفرِ أَوْ فى تكسيرِ الأحجَارِ وإلا كسّـرْتُ رأسَكَ قبلَ سلخ جلدكَ».
ولأنّ شيخَ البلد تعوّدَ الإمارةَ والإدارةَ ولم يتَعوّدْ أنْ يعملَ بيدَيْه، فَمَا إن وافَى الظهرُ حَتّى تَعذّرَ عليه أنْ يرفعَ ذراعًا أو يُحرّكَ سـاقًا، وسقط الفأسُ منْ بَيْنِ يدَيْه، وجلسَ فوقَ قطَعِ الصخور والأحجارِ، ولم يقُمْ!!
وتَذكّرَ رجالُ شارونةَ أنه فى نفس ذلكَ المكانِ وفى وقت مُشابهٍ منَ النهارِ، سبقَ لمسعود الصغير أنْ سقطَ منَ الإعياءِ فَلَمْ يَرحمْهُ سَوْطُ الشّيْخِ مخلوف!
عندئذ أمرَ حمدى بك رجالَهُ أنْ ينقلوه إلى السّجْن، فسحبَهُ القوّاصةُ إلى هناكَ وهو يجر رجليْهِ جرًّا، وقد اكتشـفَ مَـدَى خطَأ تصوُّرهِ أنّ خدمتَهُ للأسيادِ فى القريةِ وفى شركةِ القناة ستَحميهِ مِنْ طُغْيانِهم وظُلْمِهم!!



وبعدَ الغُروبِ، أمرَ حمدى بك بجَمْعِ كلِّ رُؤسَاءِ العُمّالِ فى حلقةٍ وفى مُقدمتِهم الرجالُ القادمونَ منْ شارونةَ، وقامَ القوّاصةُ بفَرْشِ قطعةِ جلدِ البقرِ الكبيرةِ، وسَحَبوا «مخلوف» منْ سجنِه ونزعُوا الثيابَ عَنْ ظهرِه، وأجْلَسوه فوقَ قطعةِ الجلدِ كما سبقَ أنْ أجلَسُوا «مسعود»، ومخلوف لا يستطيعُ الاحتجاجَ ولا المقاومَةَ بسببِ الإرهاقِ ونتيجةَ آلامٍ يُحسُّ بهَا فى صدرِه.

وتَصفّحَ حمدى بك وُجوهَ القادمينَ مِنْ شارونَةَ مَعَ مخلوف، واختارَ مِنْ بَيْنهم «مندور» وهو يقولُ له:

«هل لَكَ يدٌ قويةٌ؟».

وقبلَ أن يُجيبَ مندور كانَ حمدى بك يضعُ بَيْنَ يدَيْهِ السوطَ ويقولُ له:

«اجْلِـدْهُ عشـرينَ جلدةً لكـى يتعلّمَ كلُ رئيـس عُمّال كيـف يُجيدُ الحراسَةَ، فلا يَنَامِ وَيترك العُمّالَ يهربونَ منْ رقَابته فى ظلام اللّيل».

أمسكَ مندور بالكُرْباج وقدْ تذكّرَ كلّ ما فعلَهُ مخلوف بصديقه مسعود وبكلّ أفراد الفَوْج... لقَدْ جاءَتْ لحظةُ العقاب!

ورفَعَ يدَهُ بالكُرباج...

لكنه فى تلكَ اللحظة تَردّدَ!

أحسّ كأنّ الشلل أصابَ ذراعَهُ..

تّذكّرَ أَنّ الشّيْخ «مخلوف» هو قبلَ كُلّ شَىْء شَيْخُ بلدة شارونة.. قريته!!

وأحَـسّ حمدى بك بتردّدِ مندور، فانتزعَ السّـوْطَ مِنْ بَيْنِ يدَيْه وهو يسبُهُ فى غَضب قائلاً:

«فلاّحٌ جبانٌ.. فلاّحٌ ضعيفٌ!!».

وسلّمَ حمدى بك السّوْطَ إلى رئيس القوّاصة.

وعندَ الضربةِ التاسـعة تَهاوَى جسـدُ مخلوف وسقطَ على جَنْبه فوقَ الأرض، لكـنّ حمدى بكَ أمرَ رئيسَ القوّاصةِ أنْ يواصلَ الضرباتِ حتى يكتملَ عددُها إلى العشرينَ.

وعندما جاءوا بالطبيب منصور، قرّرَ أن الرجلَ لفظَ أنفاسَـهُ الأخيرة قبلَ أن تُصيبَهُ الضربةُ العشرونَ...

قالَ حمدى بكِ فى استهَانة: «ادْفنوه!».

تَعاوَنَ رجالُ شارونةَ فى غَسل جُثمان الشّيْخ مخلوف، وَأقامُوا عليْهِ صلاةَ الجنازةِ، ثم حَفروا فى الرمال حفرةً وَأهَالوا فَوْقَهُ التراب.

لقَـد قَامُوا بما يفرضُـهُ الوَاجبُ عليهم، لكنّ عينًـا واحدةً لم تذرفْ دَمْعَةً عَلى شَيْخِ البلدِ الذى لم يعرفْ فِى حياتِه العدلَ أوِ الرحمةَ!

بعــدَ أيام، عندمَا خيّمَ الظلامُ، صَعدَ الطبيبُ منصور إلى غرفة ضيّقة تنتهى إليهَا درجاتُ السُّلّم الذى يُؤدّى إلى السطحِ فى بَيْتِه الصَغير، وقالَ لمسعود الذى كانَ يَخْتفى هناك:

«غدًا يُغادرُ الفَوْجُ الذى جئتَ معه منْ شارونةَ ساحات الحفر، وبعدَ غد أسافرُ إلى بورسعيد، وسترافقنى تحملُ لى حقيبةَ مَلابسى، فقد اعتدْتُ أَنْ أصطحبَ معى فى كلّ مرّة أعودُ لزيارة أُسْرتى واحدًا منَ العُمّال الذينَ أتموا شهرَ عملِهم، كمُرافقٍ لى يُساعدُنى فى حملِ حَقَائبى. ومَنْ بورسعيدَ أركبُ سفينةً تعبرُ بى بُحَيْرَةَ المنزلة إلى بَيْتِ أُسْرَتى فى مدينةِ المطريّة بمديرية الدقَهْلية على الشاطئ الآخر للبُحَيْرَة. ولَنْ يتعرّف عليكَ أحدٌ مادامَ الفَوْجُ الذى جئْتَ معه قدْ سافر، خاصةً فى فترة استقبال آلاف العُمّال الوافدينَ الجُدُد ليحلُّوا مَحلّ العُمّال السابقينَ. الشركةُ لا تهتمُ بمراقبةِ مَنْ أتَمُّوا مُدّةَ عملِهم، ولا يهتمونَ أنْ يصحبَنى أحدُهم ليعملَ فى أرض أُسْرتى بالمَطَريّة».

فى تلكَ اللحظة أشرقَتْ عَلى ذهنِ مسعود حقيقةُ المَكانِ الذِى يُمكِنُ أَنْ يوجَدَ فيه أخوه مصطفى، لكنه لم يَقُلْ شيئًا!



وتَقابَلَ الأخُ الأصغرُ مَعَ أخيه الأكبرِ داخلَ عُشّةِ الحراسةِ عَلى حافةِ الحقولِ المزروعةِ بالأرزِ التِى تمتلكُها عائلةُ الطبيبِ منصور قُرْبَ مدينةِ المطريةِ بالدقهلية.

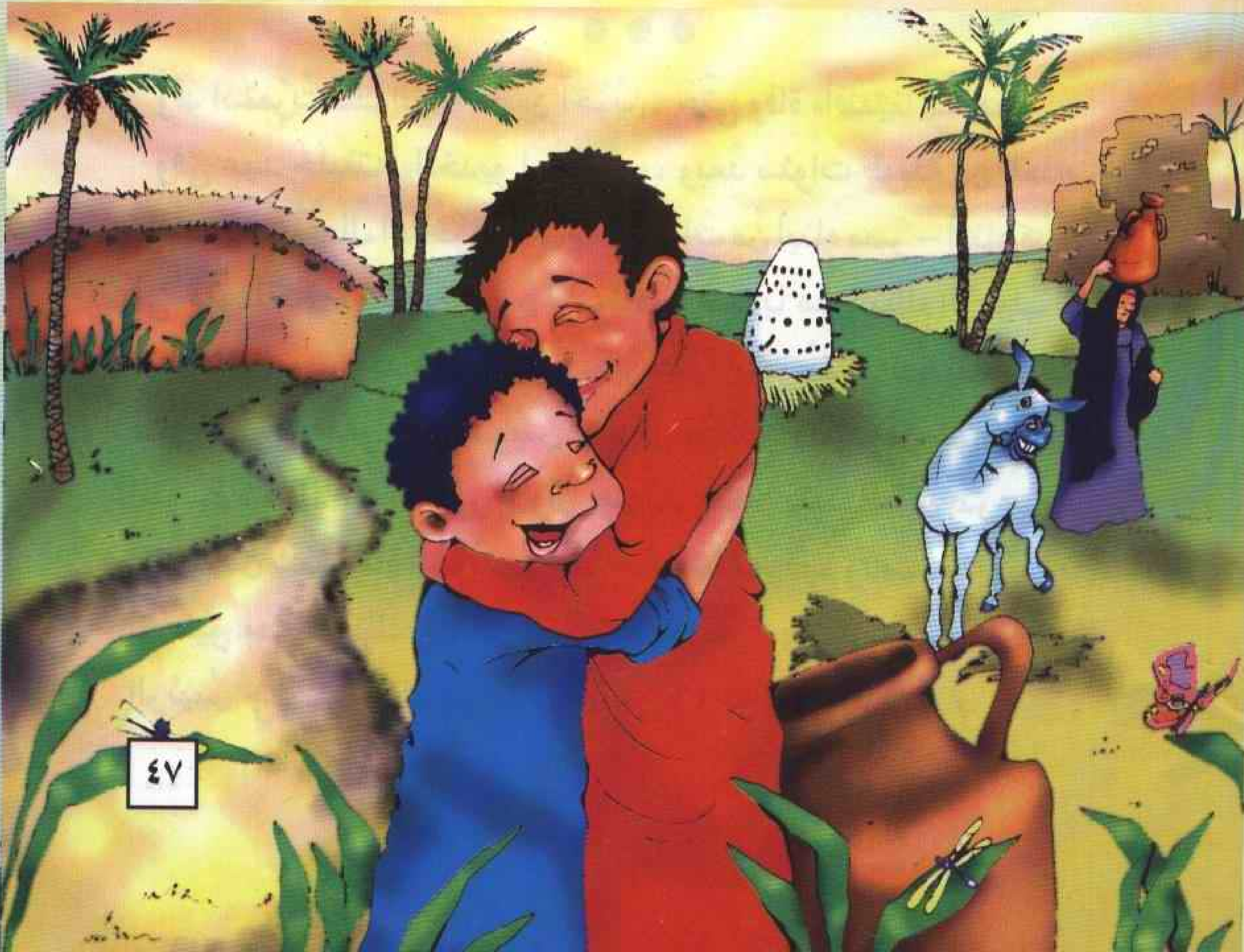
ومن مدينةِ المطرية سافرَ مصطفى ومسعود إلى الإسكندرية، ومنها بالقطارِ إلى القاهرةِ، حيث يذوبُ الناسُ فِى زحامِها فلا يتعرّفُ عَلَيهم أحدٌ.

وَفى القاهرةِ، واجهَتْهُما مشكلةٌ أخيرةٌ...

لقد قالَ لهما الدكتور منصور إنّ الشركةَ قد أبلغَتْ مُديريةَ المنيا بِهَرَبِ مسعود، وَلاَ شكَّ أَنّ المُديريةَ قد أبلغَتْ هذا الخبرَ بدَوْرِها إلى مَركزِ مغاغةَ وعمدةِ شارونةَ، لإرجاعِ مسعود فورًا إلى ساحاتِ الحفرِ إذا حدثَ وعادَ إلى قريته.

أمّا عنْ مصطفى، فقد قَالَ الطبيبُ: «لقد اعتادَت الشركةُ عدمَ إبلاغِ المديرياتِ إلا بحَالاَتِ الوفاةِ التى نُثبتُها فى سجلاّتنا الطبيةِ، لكنّ المُديريات تحرصُ علَى عَدم إبلاغِ المراكز ولا عُمَدِ القُرَى بتلكَ الحالات، لأنّ انتشارَ مثلِ هَذهِ الأخبارِ بينَ الفلاّحينَ يجعلُ منَ المُتعذّرِ جمعَ أَىِّ عُمّال جُدُد للسفرِ إلى ساحات حفرِ القناة».

قَالَ مصطفى لمَسعود: «علَينَا أنْ نبحثَ عَنْ عملٍ فِى القَاهرةِ، إلى



أَنْ تنتهِـيَ عملياتُ جمعِ الفلاّحينَ مِنَ القُرَى لِلسُّـخْرةِ فى أعمالِ حفرِ قناة صحراءِ السُّوَيْسِ».



ورغمَ كلّ الأخطارِ، تَسـلّلَ مصطفى ذاتَ يَوْم ظهرَ مركب شِرَاعىّ إلى مغاغــةَ ومنهَا ليلاً إلى شــارونةَ، وذهبَ مُحْتَميًا بالظـلام لِينقلَ إلى والدته أخبارَهُ وأخبارَ مسعود.

قالَتَ الأمُ بعدَ أَنْ أفاقَتْ منَ المفاجَأة، وقد استراحَ قلبُها عندمَا وجدَتِ ابنَها الأكبرَ حَيًّا أمامَها:

«عُدْ إلى أخيكَ يا مصطفى قبلَ انقشاع الظلام حَتّى لا يكتشفَ أحدٌ وجودَكَ هنَا، وستزولُ هَذِه الغُمّةُ يومًا فتعُود إلينا أنتَ وأخوكَ الصغيرُ فى ضَوْءِ النهار».



وقد استمرّتْ تلك الغُمّةُ عامَيْن آخرَيْن، حَتّى وفاة «أفندينا سعيد».

وفى عهد خليفته «الخديو إسماعيل»، وبعدَ سنوات طويلة منَ العذاب، أوقفَتْ مصرُ أعمالَ السُّخْرَة، لكنْ بعدَ أنْ ماتَ منْ أبناءِ مصرَ - أثناءَ كدْحهم فى حفر القناة - مائةٌ وعشرونَ ألفَ فلاّح، ضَحَايا هذَا النظام الرّهيب الذى فرضَهُ الوالى سـعيد علَى شـعب مصرَ هَديةً بغَيْرِ مُقابلٍ لصَديقه دليسبس مُدير شـركة حفر قناة السُّوَيْس، فجعلَ منْ أهل مصرَ، منْ شواطئِ البحرِ المتوسط شـمالاً إلى صخور أسوانَ جنوبًا، عَبيدًا يتسـاقطونَ صَرْعَى حتّى انتهُوا منْ شَقّ قناة السُّوَيْس، التِى حفروهَا بعرقهم ودمهم بغَيْر مُقابلٍ، لتحقيق مصلحةِ تلك الشركةِ التى نهبَتْ مصْرَ، وظَلّتْ تنهبُها إلَى أَنْ قَامَ الرئيسُ جمال عبد الناصر بتأميمِها فى ٢٦ يوليو عامَ ١٩٥٦ م.